

# حرام

www.hiramagazine.com

العدد الثالث / السنة الأولى / (أبريل - يونيو) 2006

مجلة علمية ثقافية فصلية

✓ الرسول ﷺ في علو شأنه ورفعة منزلته  
أ.د. علي جمعة

✓ فصل المقال عند الحكيم بديع الزمان  
أ.د. طه عبد الرحمن

✓ وجعلنا نومكم سباتاً

أ.د. زغلول النجار

✓ أنت قلبنا الخفاق وروحنا النابض  
محمد فتح الله كولن

✓ أهداف الاحتفال بالمولد النبوي  
أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي

✓ التسامح في الإسلام

أ.د. محمود حمدي زقزوق





مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن  
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

**صاحب الاستبيان**  
Publishing Director

أنس أركنه  
mergene@hiramagazine.com

**رئيس التحرير**

Editor - in - Chief

نوزاد صواش  
nsavas@hiramagazine.com

**مدير التحرير**

Managing Editor

أشرف أونون  
eonen@hiramagazine.com

**الإخراج الفني**

Graphic Designer

أسيد إحسان الصاخي  
usalhi@hiramagazine.com

**المركز الرئيس**

HİRA MAGAZİNE

Emniyet Mah. Huzur sok.

No:5 34676

Üsküdar - İstanbul/Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902163184202

e-mail:

hira@hiramagazine.com

**الاشتراكات/مركز التوزيع**

٧ في العراكة - حي السايح - م. نصر القاهره

القاهرة - ب. و. ق. ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤

المحور: 20123785192

جمهورية مصر العربية

sub@hiramagazine.com

**الطباعة**

International printing house

P.O BOX 312

Public Free Zone, Nasr city

Tel: 02022740

Heliopolis - Cairo

Egypt

**رقم الإيداع**

1306-1879

أنت قلبنا الحفاق وروحنا النابض

٤..... محمد فتح الله كركن.....

الحب-الناسي-الأخلاق: أهداف الاحتفال بمولد سيد الأنعام ﷺ

٧..... أ.د. محمد سعيد رمضان البرطي.....

وثيقة المدينة المنورة: وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان

١١..... علي بولاج.....

وجعلنا نونكم سبائاً

١٧..... أ.د. زغلول النجار.....

فلتهدل الحمام على شرفات الروح «شعر»

٢٠..... عارف غاد آسيا.....

ماذا تعني بشرية الرسول ﷺ

٢٢..... أ.د. محمد عمارة.....

التسامح في الإسلام

٢٥..... أ.د. محمود حمدي زقزوق.....

جمالية الناظر

٢٩..... براء بريقايا.....

القصيدة الحجرية: أشواق عشقية في حضرة سيد الإنسانية «شعر»

٣١..... أ.د. سعدي حوغلي - سلامي نافوحي.....

الرسول ﷺ في علو شأنه ورفعة منزلته

٣٣..... أ.د. علي جمعة.....

الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ

٣٧..... أ.د. عبد الحليم عويس.....

من صحراء نجد نحو المدينة المنورة «شعر»

٤٠..... محمد عاكف.....

عند قدمي الحبيب ﷺ

٤٢..... أديب إبراهيم الدباغ.....

من آفاق الذات المحمدية ﷺ

٤٤..... إحسان قاسم الصاخي.....

السيرة النبوية مشروعا حضاريا

٤٧..... أ.د. عماد الدين خليل.....

النور الخالد: محمد ﷺ

٥٠..... أحمد بحت.....

مكانة الرسول ﷺ في نظر المنصفين من المستشرقين

٥٢..... أ.د. أحمد عمر هاشم.....

طيبة «شعر»

٥٤..... أ.د. حسن الأمrani.....

الطيور... ملحنون لم نخل أسرارهم بعد

٥٥..... عزيز أوغور.....

فصل المقال فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال

٥٨..... أ.د. طه عبد الرحمن.....

عقاها الحب «شعر»

٦٢..... نبيلة الخطيب.....

المناهة

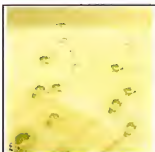
٦٣..... جمال أمين.....

النهاية الختمية: موت الكون

٦٥..... أورخان محمد علي.....



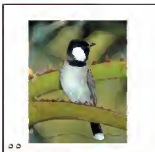
المقال الرئيس



شعر



أدب



علوم

# أنت قلبنا الخفاق وروحنا النابض

| محمد فتح الله غول



وأضحى أصحابها ممثلي القيم الإنسانية على مدى العصور، فما حاب وما ضاع من اقتدى بهم. لقد وجد جل العالم الإنساني فيهم وفي أصواتهم وكلماتهم وأقوالهم نبضات وجدانه التي لم يكن قد اكتشفها حتى ذلك اليوم، وأطلع كل واحد بفضلهم على أعماقه الداخلية.

أجل، بفضلك أصبح جميع الناس الذين بدؤوا مختلفين جداً بعضهم عن بعض، بل أصبح حتى الجن وأصحاب الأرواح الطيبة -معنى من المعاني- يتكلمون عن معانٍ ما كانت تخطر على بالهم من قبلك ولا تنعكس على أحاسيسهم، وإن انعكست فما كانوا يستطيعون التعبير عنها، وإن استطاعوا التعبير فما كانوا يجيدونها، ولا يضعون كل شيء في مكانه الصحيح؛ ولكنهم أصبحوا يُقننون هذا بفضلك ويخلون مشاكل ومعضلات عديدة.

بعد أن شرفت العالم بقدمك، وترتعت على عرش قلوبنا حللت رموز وشفرات أسرار المعاني العميقة لمعنى ولماهية الإنسان الذي خلُق في أحسن تقويم، وأطلقت بذلك الأكنس عن عقائلها، وعلمت الغربان كيف تتحوّل إلى بلابل وعسادل صداحة، وأثرت رغبة الصديق والعدو في الإصغاء إلى أعماقهم والتعبير عنها، كل من زوايا مختلفة.

وبفضل قيامك بتأمين ظهور القيم الإنسانية والعالمية المشتركة، وظهر آلاف وجهات النظر والآراء والمفاهيم في بوتقة واحدة وجمعها حول محور واحد من الروح، فقد أحسّ

كانت ولادتك ولادة الإنسانية أيضاً... لقد استطاع القاصي والداني والصديق والعدو أن يصر بالنور الذي نشرته صوابه وأخطائه، ويقيمها على أساسه وبواسطته، فيبلغ بفضلته من الأطمئنان مبلغاً معيناً. نحن جميعاً ما كان بمقدورنا أن نفهم الجنة التي نشعر بها في أعماق قلوبنا حتى الفهم، وندرك سعادتها الأبدية حتى الإدراك إلا ببيانك السماوي... أجل، بشلال بيانك الساحر استطعنا أن نترجم نحو ما يتبعه منا الحق تعالى وما يرضاه لنا.

إن كانت أعيننا اليوم ترفّ بتسبيح الله تعالى وتقديسه... وإذا كانت قلوبنا اليوم تنبض بشوق الوصال... فأنت، أنت الذي أشعلت فتيل هذه المشاعر والأفكار العلوية في أعماق قلوبنا... أنت من علمتنا وأشرت إلى الذرى السامية الحقيقية للإنسان وللإنسانية... أنت من أوقدت في قلوبنا جهرات الحب وأدقنا نشوة الوصال... أنت من كشفت للمتوحجين إليك وإلى رحابك بكل توفير عن السرّ الحقيقي للوجود... وعلاوة على هذا فقد أشرت ودللت -أخذاً إقرار وتقدير وتصويب الملايين بل البلايين من الناس- أصحاب الأرواح المنصفة إلى قيم ثابتة لكي يظل كل إنسان على ماهيته الحقيقية.

إن النفوس التي تذوقت حقيقة الحب بفضلك واهتدت إلى آفاق الحياة الروحية الواسعة بدأت تشدوا -وكأنها مطبوعة على الحب والتوقير- بترنيمات سامية منبعثة من أعماق الروح وكلمات حكيمة تعبّر عن عمق الأبعاد الإنسانية لديها،

الجميع بأشياء كثيرة من عالم وأفق أرواحهم. ومن ثم فقد تحلت الإنسانية بأجمعها، بل حتى عالم الجن وعالم الأرواح الطيبة -بفضل المعاني المترشحة من رسالتك وبفضل لب وجوهر هذه الرسالة- عن القوالب الجامدة لبعض المفاهيم فتملصت منها ووجت إلى عالم التغيير والتجديد.

وسواء أشعر به الجميع أم لم يشعروا فإن القسم الأعظم من الإنسانية استطاع تحقيق العديد من أنواع التجديد والعديد من النجاحات بفضل منظومة الإيمان التي وضعتها وبفضل الأهداف الإنسانية التي أشرت إليها وشجعت عليها.

وحقّ فجر الإنسانية ويومها الذي طلعت فيه كان الظلام يسود كل جزء في هذا العالم. كان الجميع يرتجفون خوفاً من وحشة العدم، ويقلقون من المشاكل التي تحيط بهم وتحاصرهم. ولكن بفضل رسالتك التي كانت تبشّر بكل مشكلة وتلبية كل حاجة وتحقيق كل أمنية وكل أمل، انشرفت الأنفوس وتفتحت الآمال في الأرواح، فبدأت نسمات الأمل تهب على القلوب التي كانت تتقلب على جمرات اليأس، وصدحت أنغام الأمل والسلوان في كل مكان، إلى درجة أن النعمات السحرية التي بدأت تعالي وتنقل عبر النسمات كانت تبشّر القلوب الحزينة على الدوام بالسعادة والبهجة، وتتحدث معها عن الحب، أي كيف تُحب وكيف تُحب، وتفتت الحياة في العلاقات الإنسانية وروابطها التي بدت وكأنها تختصر، وتسند وتحبي المحبة والعشق، وتمدّ المشاعر الإنسانية -التي هجعت في القلوب منذ عصور- بالحركة والنشاط، وتدعو الناس جميعاً إلى الغوص في أعماق قلوبهم لكي يعرف كل إنسان حقيقته، ويقدر إنسانيته حتى التقدير.

إن أنفاسك الدافئة المخلصة أحييت القلوب الظمأى إلى الحب والأمل والسعادة. أما القلوب الظمأى التي انحنت توقيراً لرسالتك فقد أثارت فيها انفعالاً قدسياً، وسأقت الأرواح السامية بحمى العبودية لله إلى تديفقات وتفحصات جديدة، تديفقات تلتصع وترق في

الطرق التي تسلكها الأدمغة الباحثة عن السور. لقد كنت بليمانك المدهش الذي لا يعرف التردد أو الخور وبأصحابك الميامين الأوفياء الذين وقفوا معك تسعى نحو أمل كبير فوق كل أمل، وهو أن تُسمع صوتك للإنسانية جمعاء. لقد بذلت كل ما في وسعك طوال حياتك السنية وفي كل فصل من فصولها بل في كل نفس من أنفاسك العطرة من أجل السعادة الأبدية للإنسانية جمعاء، ولم ينقطع جهدك هذا ووقاؤك وإخلاصك أبداً. وما كان كل هذا لينقطع أو يتوقف لحظة، لأنك كنت تسعى لتحقيق أحلام الإنسانية جمعاء لكي تكون بجزودها معنى، ولكي تحقق الأرواح الطامّة للأبدية أملاً وحلمها... فهذه هي رسالتك، ومن أجلها أرسلت وبُعثت... لتأمين الحاجات القلبية والروحية والمادية، وللإنسانية، ولتحقيق أملاً في الحب والتحابب، ولتحقيق أحلامها وآمالها في السعادة هنا وفي الدار الآخرة... كان هذا الأمر يشكل عمقاً مهماً من رسالتك، وكنت قد عزمت على تحقيق هذا الأمر.

كانت رسالتك عالمية وكونية، لذا كان كل شخص يأخذ منها حسب سعة قلبه وبقِيّتها حسب قابليته وحسب جو قلبه وأحواله. وذلك بفضل الطابع الفطري فيها، وكون الأحكام التشريعية فيها مسيرة للقوانين السائدة في الكون وموافقة للطاقات القلبية والروحية والعقلية الموجودة في الإنسان. فكل قلب، وكل فؤاد يجدها مرافقة لفطرته وملامته لها، ويطلع بواسطتها وفي جوها الروحاني على الأسرار العميقة للوجود. أجل، كل ما تمنعنا منك، وكل ما فهمنا من أشياء وأمور عند قراءتنا لتصرفاتك وتخلّقتك الرفيع فهمناها وسعدنا بها وفسرناها، مع أن مصدرها مصدر سام تنزلت منه موجات إثر موجات حسب عقولنا ومستوانا، فأحاطت بأرواحنا واحتضنتها، وداعبت مشاعرنا وأحاسيسنا، وأحسنا بقرعها منا وكأنها نبئت ونمت ثم ترعرعت في إقليم قلوبنا وفي بستانها؛ وشعرنا بدفئتها حتى لكأنها توشك أن تتدفق من صدورنا. لقد أحاطت بمأهيتنا الإنسانية



تعرضت لبحود أتباعك وعدم وفائهم، ولهجوم أعدائك. ولو تركنا الجهود المباركة لسلفنا الصالح وأجدادنا الأوفياء جانباً فسنذكر بأننا لم نستطع أن نعرف العالم بك. وكلما تذكرنا الآن محاولات جبهة الكفر والتهمج عليك نمتننا: «ما أجدنا وما أبعدنا عن الوفاء!!»



والعهد ولذلك القوم»، وشجعوا بهذا علماً مليئاً بالأحقاد والخصومات والعداوات، واستعانوا على ذلك برسوم كاريكاتيرية شنيعة بعيدة عن الخلق؛ أي تعرضت لبحرود أتباعك وعدم وفائهم، ولهجوم أعدائك، ولو تركنا الجهود المباركة لسلقنا الصالح وأجدادنا الأوفياء جانباً فسنترك بأننا لم نستطع أن نعرف العالم بك. وكلما تذكرنا الآن محاولات جبهة الكفر والتهمج عليك تَمَتُّنا: «ما أجدنا وما أبعدنا عن الوفاء!!»

وعلى الرغم من كل شيء فلا نشك مطلقاً بأن عهداً جديداً ذا جذور معنوية وروحية قوية، وذا جينات صافية... عهداً زاهراً ذا حس وماء وترية تبشر بعالم جديد قريب من رحابك التي تفوح شفقة ورحمة... وسيكون هذا عهداً جديداً أحلاماً عاجلاً. لقد بدأ الآلاف بل مئات الآلاف منذ الآن ينتظرون هذا العهد الجديد ويترقبونه ويعيشون على أمله.

لا أستطيع أنا، ولا يستطيع الآخرون أن يطلبوا منك العفو والصفح... نستحي من هذا ونحجل... ولكننا لم نشك لحظة من سعة كرمك. وفي أصعب الأوقات والأحوال، عندما أظلمت آفاقنا، وهجم الخريف علينا، وخرت الطرق وتهدمت الجسور... حتى في هذه الأوقات لم نصرف عيوننا ولم نبعدنا عن تعقب آثار قدميك وكررنا قول «كأنني زاده»:

«أنت عزيزنا... مرشدنا... أستاذنا... سيدنا... نورنا المضيء... ضياء معنويانا في الدارين... كل إخوان متفقون على هذا». لتعبّر مرة بعد مرة عن وفائنا لك وإخلاصنا. نواقصنا كثيرة، وإهمالنا كبير، ولكنه سيبقى كقطرة بجانب بحار عفوك ومماحتك. إذن:

مولاي وسيدي! لا تقطع كرمك عن البؤساء والفقراء!

أليق بسلطان الكرم قطع كرمه عن المعلمين والمتسولين؟! ❗

(م) الترجمة عن التركية: أورهان عميد علي.

وتفرست في أعيننا وتمعت وكأها سحرنا بطعمها وبلاغتها من رأسنا حتى أحمص قدمينا. كان هذا الأمر خصلة من خصالك تفردت بها، وسجية من سجاياك لم يشاركك فيها أحد.

استطعت أن تخاطب الناس جميعاً خطاباً يعلو على جميع المشارب والثقافات الخاصة، ولكن بأسلوب فائق الجمال سامي الدرجات لا يجرح أحداً ولا يخذل مشاعره... تخاطب كل الناس فتؤثر في الأرواح المهياة وتوقظها. خطابك بليغ...

خطاب ذو رموز خاصة وإشارات وإيماءات تقوم بمضاغة معنى التعابير وتعمقها وتجسدها... لقد فتحت أبواب أسرار الأشياء والحوادث أمام من سيأتي من بعدك، بل فتحتها على مصاريها أمام بعضهم حتى سمو إلى تدوق نشوة عالم آخر... نشوة لا تبلغها أي نشوة أخرى ولا ترقى إليها. ونحن لا نزال نحفظ في قلوبنا هبات السماء وهداياها (الآيات القرآنية) وعندما نقوم بالتعبير عنها وترجمتها إلى الواقع بتعابير جديدة حسب مقتضيات العصر نتذكرك على الدوام، ليس مرة واحدة بل ألف مرة... ومن أعماق قلوبنا ننحي إحلالاً لك وتوقيراً. فهذا حق لك، كما هو واجب على جميع رعاياك وأتباعك الذين تبشّر قلوبهم بالوفاء لك.

أنت هبة للكون من قبل الخالق جل وعلا لا نظير لها ولا منيل، ورسالتك وتعاليمك أمانة منه تعالى إليك. لقد أصبحت عند الذين عرفوا هذا وأدركوه أعز وأحب من أزواجهم، فقد علموا مدى دينهم لك. لذا فما فتوا مخلصين لك وأوفياء، وقد حصلوا على أضعاف وأضعاف مقابل هذا الوفاء.

ولكن جاء يوم ظهر فيه بعض المختلين نفسياً وعقلياً من جحورهم من منتسبي ثقافات أخرى وقاعوا أقذار كفر قلوبهم وأرجاسها وبدأوا يتحرشون بك ويصمونك -حاشاك ألف مرة- بالبدلوة، ويصمون صوت السماء ورسالتك بأنها «قانون الصجراء»، ويحاولون حبسك في عهد معين، ويتجرأون على القول بأنك تعود «لذلك



كانت رسالتك عالمية وكونية، لذا كان كل شخص يأخذ منها حسب سعة قلبه وقياسها حسب قابليته وحسب حور قلبه وأحواله. وذلك بفضل الطابع الفطري فيها، وكون الأحكام التشريعية فيها مسيرة للقوانين السائدة في الكون وموافقة للطوائف القلبية والروحية والعقلية الموجودة في الإنسان.



«يكني عمداً [ﷺ] فحراً أنه خلّص أمةً ذليلةً دُمُويّةً من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم؛ وأنّ شريعة عمده [ﷺ] ستسودّ العالم لانسجامها مع العقل والحكمة.»

الأديب الروسي تولستوي

## الحب - التأسّي - الأخلاق

# أهداف الاحتفال بمولد سيد الأنام

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي\*

المهدف الثالث أن نجعل من الأخلاق التي أكرم الله عز وجل بها رسوله محمداً ﷺ منهج دعوتنا إلى الله، وأساس حوارنا مع عباد الله سبحانه وتعالى، فأنعم بالاحتفال بذكرى مولد المصطفى ﷺ عندما يكون سُلماً لبلوغ هذه الأهداف الثلاثة.

### ١. الحب

المهدف الأول تغذية محبّتنا لرسول الله ﷺ، ولا أقول إيجاب محبّتنا، فأنا لا أتصور أن يكون في الدنيا مسلم آمن بالله وآمن بنبوّة محمد ﷺ ثم لم يصبح قلبه وعاءاً لمحبة هذا الرسول الذي اصطفاه الله وأرسله رحمة لنا: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (النوبة: ١٢٨).

مؤمن بالله وبرسول الله ثم لا يكون محباً لله؟! هذا أمر لا يمكن أن يكون، ولكن المأمول من احتفالتنا واحتفالنا بذكرى مولد المصطفى ﷺ أن تُمتعنا ذكراه بمزيد من محبته وأن تتحدّد محبّته ﷺ في أعماق نفوسنا. ونحن نعلم أنه ﷺ قال فيما صحّ عنه: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ماله وولده والناس أجمعين» (رواه البخاري). لم يقل المصطفى ﷺ هذا الكلام إطراراً لنفسه - لا، معاذ الله - وإنما بلغنا ما أمره الله عز وجل أن يبلغنا إياه. أمره الله أن يعلمنا بأن محبّتنا لرسول الله جزء لا

لقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه رُمي في يوم من أيام الاثنين صائماً، فسأله أحد الصحابة عن ذلك - والشهر ليس شهر رمضان - فقال ﷺ له: «ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه» (رواه مسلم). وهذا يعني أنه ﷺ يحفّي باليوم الذي ولد فيه. فقد صحّ أنه ولد يوم الاثنين، وتوفي أيضاً يوم الاثنين، ومعاذ الله أن يكون احتفال المصطفى ﷺ بيوم ولادته عن طريق صيام ذلك اليوم بدافع من التباهي، معاذ الله، وإنما هو شكر الله سبحانه وتعالى أن اصطفاه وأرسله رحمة للعالمين. ثم إنه تعلّم لنا نحن المسلمين من أمة المصطفى ﷺ، فإذا كان مصدر الرحمة يحفّي بيوم ولادته، فالناس الذين تلقوا هذه الرحمة وأكرمهم الله عز وجل بما أوّل بالاحتفاء والاحتفال بيوم ولادته ﷺ.

وها نحن في الأيام التي تقوح فيها ذكرى ولادة المصطفى ﷺ، ولا شك أن من دواعي تجديد التّبعة لرسول الله ﷺ وتجديد المحبة له والظّهر إلى حقيقة اتّباعنا له عليه الصلاة والسلام أن نحفّي بذكرى ولادته، لا لذات الاحتفاء.

ليس الاحتفاء مقصوداً بذاته وإنما هو وسيلة إلى هدف؛ المهدف أن تجلّد حبنا للمصطفى ﷺ، فهذا هو الغرض الأول، ثم أن تتأسّى بالمصطفى ﷺ وهذا هو المهدف الثاني، وصدق الله إذ قال: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (الأحزاب: ٢١)،

الله ﷺ من المنبر واستلم الجذع وظل واضعاً يده عليه إلى أن سكن. وإني لأخيل أن المصطفى ﷺ كان يقول له وقد وضع يده عليه: «ماذا تريد؟ إن شئت غرستك فوق أعلى رابية من قسم الأرض، نفلة سحقاً، يتمتع الناس بشمارك إلى يوم القيامة»، ولكن الجذع لم يعجبه ذلك. قال له من خلال ما يُترجم إليه ذلك الحنين والأين: «لا، أريد قربك، أريد القرب منك».

ألسنا أخرى بأن نقول هذا حبيبنا المصطفى ﷺ؟ بيننا وبينه أرملة طويلة حالت دون رؤيتنا له وقربنا منه، ألسنا أولى من هذا الجذع بأن نقول له: «نريد قربك يا رسول الله».

الحب... تلمسوا عمة رسول الله بين جواحكهم، إن عديم إلى أنفسكم فوجدتم أن عمة الدنيا والأهل والعشيرة قد تغلبت على عمة رسول الله، فاعلموا أنكم تعاونون في حياتكم الإسلامية من مشكلة لا حل لها. ومهما قَدِّمَت العقول والأفكار حلولاً فالعقلانية لا تقدم في مثل هذه الحالة حلاً ناجحاً، القلب هو الذي يقدم الحل. العقل يشير كما يشير الشرطي لمن تاه عن الطريق إلى الجادة التي ينبغي أن يسلكها، ولا يفعل العقل أكثر من ذلك؛ أما الحادي الذي يسوق، ويدفع إلى الطريق فهو الحب، هو الذي يجعل المؤمن يركل بقدمه الدنيا وأهواها، هو الذي يجعل المؤمن يركل بقدمه كل ما ينافس دين الله وشريعة الله وأوامر الله ﷻ. نعم، هذه هي الغاية الأولى من احتفائنا بمولد المصطفى ﷺ، وإني لأسأل الله أن يجعل قلوبنا أوعية صافية لحب الله أولاً ولحب حبيبه المصطفى ﷺ ثانياً.

## ٢. التأسى

الغاية الثانية من احتفائنا بذكرى حبيبنا المصطفى ﷺ أن نجدد البيعة له، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١)، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فاتبعوا رسول الله، لاحظوا هذا الربط، يقول لي الله عز وجل: «أتعجبني؟ أتحب مولاك وخالك؟»، «نعم يا رب». قدَّم

يتحرراً من الإيمان بالله، فكان لا بد أن يبلغنا ذلك وإلا ما أقيمت أمانة الله ﷻ، ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رَسُولَهُ﴾ (آل عمران: ٦٧).

تلمسوا في أفئدتكم مكان محبتكم لرسول الله ﷺ، واعلموا أنه الدواء الذي يقضي على كثير من أمراضنا النفسية التي تحتاج عالماً إسلامي كله. عمة المصطفى ﷺ هي الدواء لو أن أفئدتنا كانت أوعية لهذا الحب. ونحن الذين حبل بيننا وبين رؤية المصطفى ﷺ، ولم تكنحل أعيننا بمرآه وحجبنا عن رؤيته بزمن يبلغ مداه أربعة عشر أو خمسة عشر قرناً، لا بد أن يستبد بنا الحنين إليه، ولا بد أن يستبد بنا الشوق إليه... إلى الذي تشوق إلينا قبل أن تشوق إليه. ألا تذكرون يوم زار البقيع قبيل وفاته، سلم على أهل البقيع ومعه ثلة من أصحابه ثم قال: «وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا» قالوا يا رسول الله ألسنا إخوانك؟ قال «بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعد وأنا قرطهم على الخوض» (رواه النسائي).

أرايكم كيف تشوق رسول الله ﷺ إلينا؟ أفلا نبأدله شوقاً بشوق، أفلا نبأدله تحناناً بتحنان، حباً بحب؟! أعقد أننا بحاجة إلى أن نجدد حبنا لرسول الله، وليس حبنا لرسول الله إلا غصناً متفرعاً عن حبنا لله ﷻ. يا عجباً لجماد لا يعي، وليس له قلب كقلوبنا ينبض به، نحن إلى رسول الله ﷺ، لأنه أبعد عنه، ثم لا يكون الإنسان ذو القلب الشحني ذو المشاعر الوهاجة مثل هذا الجماد في حنينه إلى رسول الله، أيعقل ذلك؟!.

أذكرون ما قاله البخاري في صحيحه وغيره يوم وضع المنبر لرسول الله ﷺ بإذن منه، وأبعد الجذع الذي كان رسول الله ﷺ إذا وقف يُخطب استند إليه... أبعد الجذع إلى مكان قصي في المسجد، ولما وقف رسول الله ﷺ يُخطب سمع كل من في المسجد أزيزاً كأزيز المرجل ينبعث من ذلك الجذع الجامد الذي لا يعقل فيما تنصور، والذي ليس له قلب كقلوبنا فيما نتخيل، نحن إلى رسول الله ﷻ لأنه أبعد عنه بضعة أمتار، حتى نزل رسول



اللمحة الشريفة للرسول ﷺ  
متحف طوب قاي - إسطنبول



الرهان على ذلك. برهان محبي الله اتباعي لرسول الله ﷺ «مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» (النساء: ٨٠). تعالوا نجدد بيعتنا لرسول الله ﷺ، تركنا على سنة بيضاء نقية ظاهرها كباطنها لا يزيغ عنها إلا هالك، لا تتبععدوا عنه، لا تتبععدوا عن سنة نبيكم المصطفى ﷺ.

### ٣. الأخلاق

صاغه الله عز وجل عليها «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (النمل: ١). قفوا أمام هذه الكلمة الموجزة التي لا تنأى معانيها، والتي تبصّر بدلائل بحجة الله ﷻ لرسوله، «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»، «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وأقول بحق، لو أن الله عز وجل علم أن هنالك سبيلاً لتنمية الأخلاق الإنسانية الفاضلة في حياة الإنسان غير سبيل العقيدة الإيمانية وغير سبيل المبادئ الإسلامية، لأمر عباده بسلوك ذلك السبيل، لكن الله الحكيم العلي القدير علم أن السبيل الأوحد الذي يفرح الأخلاق الإنسانية، ومن ثم الإسلامية السامية بين جوانح العبد هو ربوبية الواحد الأحد وهيمته عليه. هذا هو السبيل الذي يحقق الأخلاق الإنسانية الفاضلة، ألسنا مسلمين؟ ألسنا مؤمنين بالله؟ ألسنا قد عاهدنا الله على أن ننسى برسوله، إذ قال: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (الأحزاب: ٢١)، إذن فأنسوا بأخلاق المصطفى ﷺ الذي يقول: «أيها الناس! إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، لتسعكم بسطة الوجه وحسن الخلق» إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، مسلمين وغير مسلمين، لن تسعوا الناس بأموالكم، أموالكم لا تكفي لشراء قلوب الناس أبداً، لكن هناك سبيل آخر لا يكلّفكم شيئاً من هذا، فلتسعكم منهم بسطة الوجه وحسن الخلق.

أعود إلى ذلك الحديث الذي تشوق فيه رسول الله إينا. أقول «إينا»، أماً أن نكون نحن من أولئك الذين اشتاق إليهم رسول الله ﷺ. حديث نضفه الأول بشاراً ونضفه الآخر إنذاراً، قال: «سأكون قرطاً لم على الحوض» أي سأستقبلهم على الحوض، قال له أحد أصحابه: أتفرعهم يا رسول الله، يعني أنت لم ترهم، قال: «أرايتم لو أن رجلاً له حيول غرٌ مُحَلَّةٌ في حيول دهم بهم أفكان يعرفها؟» قالوا: نعم.

أفرايتم لو أن رجلاً له حيول غرٌ، أي لها صبغة بيضاء على جبينها ولها أسورة بيضاء على قوائمها، هذا معني «غرٌ محملة»، وسط حيول «دهم بهم»، أي سوداء أفكان يعرفها، قالوا: نعم، قال: «فأنا أفرعهم غرّاً لمحجلين من آثار الوضوء»، ثم قال: «ألا ليذاذن رجال عن حوضي» أي ليطردن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، فأقول: «ألا هلم، ألا هلم» فيقال: إنك لا تدر كم يدلوهم من بعدك، أقول: «فُسْحَقاً، فُسْحَقاً، فُسْحَقاً».

تعالوا نحرص على أن نتبع حبيبنا المصطفى ولا نبذل ولا نغير، أتمم ندعون بين الحين والآخر إلى التغيير، إلى التبديل، إلى التطوير، إياكم! والله إنها رقية شيطان، اثبتوا على العهد، نفذوا وصية رسول الله ﷺ يوم قال وهو في مرضه الذي توفي فيه: «ولسوف تجدون أثره من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». اصبروا على الشدائد إن رأيتموها شدائد، اصبروا على أوامر الله يُعَنِّمُ الله سبحانه وتعالى. هل تعلمون أعظم مزية مع الله بها رسوله المصطفى؟ إنها مزية الأخلاق الإنسانية الرفيعة، وما أعلم أن الله أنبى على حبيبه المصطفى بمزية أحل وأسمى وأبقى من مزية الأخلاق التي



تراب القبر الشريف للرسول  
متحف طرب قاي - إسطنبول

حسن الخلق هو السلاح الأمضى على طريق الدعوة إلى الله، حسن الخلق هو الدواء الأنعم الذي يعيّنكم بميوبي في قلوب الناس، الذي يجعل لكلماتكم سلطاناً على عقولهم ومن ثم سلطاناً على أفتدّهم. الخلق الإنساني السامي الذي هو الثمرة الأولى لشجرة الإسلام هو السبيل الذي افتتح به المسلمون من قبلكم شرق العالم وغربه. الإسلام الذي وصل إلى ربوع آسيا الوسطى وغيرها وإلى جنوب شرقي آسيا، بأي وسيلة وصل؟ لم يصل إلا بواسطة الأخلاق الإنسانية الراشدة. وانظروا إلى المسلمين هناك كم يتعشقون الإسلام. إن



أحداً»، فتبسم المصطفى ﷺ وقال: «لقد حَجَرْتُ واسِعاً يا أبا العرب».

هذا هو رسول الله ﷺ، تأسَّوا به وكونوا شعاعاً، كونوا مصابيح الهداية، ولن تكونوا كذلك إلا بأخلاقكم الإنسانية الراشدة. برهنوا على أخلاقكم السامية بتألكمكم، بالود الذي ينبغي أن يشيع فيما بينكم، بإسقاط عوامل الخلافات والتدابير. الأخلاق الإنسانية ليست كلمات مدبَّجة وإنما هو سلوك. عندما تزول الخلافات التي تستشري بين الحين والآخر بين المسلمين، عندما يشيع الإيتار بين المسلم وأخيه المسلم بدلاً من الأثرة، عندما أتنازل عن فكر اجتهادي تبيَّته في سبيل أحوة إسلامية، وعندما تتنازل عن رأي اجتهادي تبيَّته في سبيل أحوة إسلامية أجل وأبقى؛ عندئذٍ ينظر الغرب إليكم، بتعشقونكم. وحتى لو كنتم صامتين فإن صمتكم المقدس لسوف يكون أعظم مصباح يهدي السالكين إلى الله، يخرج التائهين من ظلمات تيههم إلى الإسلام.

هذه ثلاثة أهداف، نحتمي بذكرى مولد رسول الله ﷺ لتحقيقها. فالاحتفال ليس أمراً مقصوداً لذاته وإنما هو سبيل إلى هذه الأهداف الثلاثة.

جددوا محبة رسول الله ﷺ بين جوارحكم، اجعلوا منه بعد الله مَهوى قلوبكم. جددوا البيعة مع رسول الله ﷺ، على أن تتبعوا هُديَه وسُنَّتَه، وألا تبدلوا حتى لا تطردوا من حوضه إذا قَامَ الناس غداً لرب العالمين، وحتى لا يقال لكم «فسحقاً، فسحقاً».

جَمِّلُوا سلوككم بالأخلاق الإنسانية الراشدة، واعلموا أن الثمرة الوحيدة في الدنيا لشجرة الإسلام هي ثمرة واحدة لا ثاني لها، ألا وهي الأخلاق الإنسانية الراشدة؛ حُسن خلق المسلم مع أهله، مع أولاده؛ حُسن خلق المرأة مع زوجها وأولادها؛ ثم حُسن خلق المسلم مع إخوانه المسلمين بتألفهم، بتضامون، يكونون مثال الوحدة؛ ثم حُسن خلق المسلم مع سائر عباد الله عز وجل. ﴿٤﴾

(هـ) كلية الشريعة، جامعة دمشق – سوريا.

تعشقهم للإسلام صدَّى لدعوة ذلك السلف، يوم دخلوا ربوعهم فأروا في سلوكهم ما لم يروه في سلوك الآخرين، رأوا في إنسانيتهم، في وداعتهم، في لطفهم، في جهم، في إخلاصهم، ما لم يروا مثل ذلك لا من قبل ولا من بعد. من أين جاء ذلك كله؟ من الإسلام، تعشقوا هذا الدين الذي فُتِرَ هذه الأخلاق الإنسانية الراشدة، هذا الإسلام الذي وصل إلى ربوع الغرب الذي أشرقت شمسُه في إسبانيا، كم هي قطرات النداء التي أريقَت في سبيل ذلك؟ ولا قطرة. كيف انتشر الإسلام خلال عشرات السنوات لا خلال قرون؟ انتشر الإسلام إذ تعشق أهل هذه البقاع في المسلمين أخلاقهم، تعشقوا فيهم صدقهم، إنسانيتهم، لطفهم، وداعتهم، فترسَّخ الإسلام في قلوب أولئك الناس. وأنتم أحفاد ذلك الرعيل بحاجة ماسة اليوم إلى أن تصححوا صورة الإسلام في أذهان كثير من الناس الذين شوَّهت حقيقة الإسلام في أذهانهم ورؤوسهم. كيف تستطيعون أن تصححوا هذه الصورة التي شوَّهت، أبْطُطْ رِثَانَةً أبداً، لا تفيد الخطب وحدها. أبتهديدات وإنذارات؟ أبقرة مادية؟ لا تكفي وحدها، إنما الذي يصحح هنا الخطأ الذي ران على عقول كثير من الغربيين، بل على أفئدتهم أيضاً، أن تُروهم من سلوككم ومن نفوسكم صفحة الأخلاق الإنسانية الراشدة، وأن يُبعِلوا دعويتكم إلى الله عز وجل سائراً تحت مظلة الأخلاق الإنسانية كما كان رسول الله ﷺ يفعل. تعشقوا الناس على الرغم من فسوة قلوب الأعراب، تعشقوا لتواضعه وأخلاقه وحيه، لإنسانيته العجيبة الغريبة.

انظروا إلى ذلك الأعراي الذي دخل مسجد رسول الله ﷺ فأخطأ في بعض تصرفاته؛ فقال منه بعض الصحابة الذين كان عهدهم بالإسلام قريباً، نالوا منه ببعض الكلمات، فأقبل إليه المصطفى ﷺ وأجلسه إلى جانبه، ولأطفه، وحدَّته بالكلام المحبِّ، ففاض قلبه حباً لرسول الله ﷺ ورفع يديه يقول: «اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا

يا عجباً لجُدْع لا يعي وليس له قلب كقلوبنا يحنُّ إلى رسول الله ﷺ، لأنه أبعد عنه، ثم لا يكون الإنسان ذو القلب والمشاعر مثل هذا الحماد في حينه إلى رسول الله!

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### وثيقة المدينة المنورة

١. هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله]، بين للمؤمنين والمسلمين من قريش و [أهل] يثرب، ومن تبعهم ملحق بهم وجاهد معهم،  
 ٢. أهم أمة واحدة من دون الناس. ٣. المهاجرون على رُبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَتَدُون عانيهم بالمعروف والنفس بين المؤمنين.  
 ٤. وبنو عوف على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ٥. وبنو الحارث [بن  
 الخزرج] على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ٦. وبنو ساعدة على رُبعتهم  
 يتعاقلون معاقلهم الأول، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ٧. وبنو حُشم على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول،  
 وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ٨. وبنو النُجَار على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول، وكل طائفة تقدي عانيها  
 بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ٩. وبنو عمرو بن عوف على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف  
 والنفس بين المؤمنين. ١٠. وبنو الشَّيْب على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ١١. وبنو  
 الأوس على رُبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والنفس بين المؤمنين. ١٢. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ  
 مُقَرَّبًا (أي مقلًا بالدين وكثرة العيال) بينهم أَنْ يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. ١٣. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ  
 ١٣. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ [أبْدِيَهُمْ] عَلَى [كُلِّ] مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى ذَسِيعَةً (كبيرة) ظلم، أَوْ إِثْمًا، أَوْ عِدْوَانًا، أَوْ فُسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،  
 وَأَنْ أَبْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ. ١٤. وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ. ١٥. وَأَنَّ دِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ  
 يَجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوْلَى بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ. ١٦. وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعْنَا مَنْ يَهْدِيهِ فَإِنَّ لَهُ النِّصْرَ وَالْأَسْرَةَ غَيْرَ مَظْلُومٍ وَلَا  
 مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ. ١٧. وَأَنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا عَلَى سُوءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ. ١٨. وَأَنَّ  
 كُلَّ غَازِيَةٍ عَزَّتْ مَعَنَا يَعْقُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ١٩. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبَيِّءُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَا نَالُوا دِمَامَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. ٢٠. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ  
 عَلَى أَحْسَنِ هَدًى وَأَقْرَبِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَجِيرُ مُشْرِكًا مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ. ٢١. وَأَنَّهُ مَنْ لَبِثَ مُؤْمِنًا  
 قِتَالًا عَاقِبَةً فَإِنَّهُ قَدْ بَغَى إِلَى أَنْ يَرْضَى وَلِي الْقِتَالِ [بِالْعَقْلِ]، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامُ عَلَيْهِ. ٢٢. وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ  
 أَقْرَبُ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَمَّنْ بِلَاثٍ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحِلًّا (بحرما) وَلَا يُؤْوِيَهُ، وَأَنْ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤَخِّدُهُ مَنْ حَرَفَ وَلَا عَدِلَ. ٢٣. وَأَنْكُمْ مَعَهُمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ [سُبْحَانَهُ] وَأَوَّلَى حِمْدٍ [سُبْحَانَهُ]. ٢٤. وَأَنَّ الْيَهُودَ  
 يَنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ. ٢٥. وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أَمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمُ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا  
 مِنْ ظُلْمٍ وَأَثَمٍ، فَإِنَّهُ لَا يُرْتَع (أي لا يهلك) إِلَّا نَفْسُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ. ٢٦. وَأَنَّ الْيَهُودَ بَنِي النُّجَارِ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ. ٢٧. وَأَنَّ الْيَهُودَ بَنِي  
 الْحَارِثِ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ. ٢٨. وَأَنَّ الْيَهُودَ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ. ٢٩. وَأَنَّ الْيَهُودَ بَنِي حُشْمٍ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ.  
 ٣٠. وَأَنَّ الْيَهُودَ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ. ٣١. وَأَنَّ الْيَهُودَ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ فَإِنَّهُ لَا يُرْتَع إِلَّا  
 نَفْسُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ. ٣٢. وَأَنَّ حَقَّةً بَطْلٌ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَانَتْهُمْ. ٣٣. وَأَنَّ لِبَنِي الشَّعْبِيَّةِ مِثْلُ مَا لِيَهُودَ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنَّ الْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ. ٣٤. وَأَنَّ  
 مَوَالِي ثَعْلَبَةَ كَانَتْهُمْ. ٣٥. وَأَنَّ بَطَانَةَ يَهُودَ كَانَتْهُمْ. ٣٦. وَأَنَّهُ لَا يُخْرِجُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ [سُبْحَانَهُ]. ٣٦. ب/وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِجُّ عَلَى  
 ثَارٍ جُرْحٍ، وَأَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ فَتَكَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَبَرِّ هَذَا. ٣٧. وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ تَفَقُّهُمُ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ تَفَقُّهُمُ،  
 وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النِّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النِّصْحَ وَالتَّصِيحَةَ وَالتَّوْبَةَ دُونَ الْإِثْمِ. ٣٧. ب/وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَمْرٌ بِجَلِيلَةٍ، وَأَنَّ  
 النِّصْرَ لِلْمُظْلَمِ. ٣٨. وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ. ٣٩. وَأَنَّ قُرْبَ حَرَامٍ حَقِيقًا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. ٤٠. وَأَنَّ الْحَارِ  
 كَانَتْهُمْ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلَا أَثَمٍ. ٤١. وَأَنَّهُ لَا تُجَارُ حَرَمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا. ٤٢. وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِغَالٍ  
 يُخَافُ فُسَادَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ [سُبْحَانَهُ] وَأَوَّلَى حِمْدٍ رَسُولِ اللَّهِ [سُبْحَانَهُ]، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَثَقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرُّهُ. ٤٣. وَأَنَّهُ لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ  
 وَلَا مَنْ نَصَرَهَا. ٤٤. وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النِّصْرَ عَلَى مَنْ دَخَلَ يَثْرِبَ. ٤٥. وَإِذَا دُعُوا إِلَى صَلَاحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبِسُونَهُ فَلَهُمْ بِصَالِحُونَهُ وَيَلْبِسُونَهُ، وَأَمَّا  
 إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ هُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ. ٤٥. ب/عَلَى كُلِّ أَنْسَى حِمَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قِتَالُهُمْ. ٤٦. وَأَنَّ  
 يَهُودَ الْأَوْسِ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ عَلَى مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، مَعَ الْبَرِّ الْمُحْسِنِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّ الْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ لَا يَكْسِبُ  
 كَاسِبًا إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرُّهُ. ٤٧. وَأَنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظُلَامِ أَوْ ثَمٍّ، وَأَنَّهُ مَنْ حَرَجَ  
 أَمْرًا مِنْ قَعْدِ أَمِيرٍ بِمَدِينَةٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، وَأَنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَأَتَّقَى وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ [سُبْحَانَهُ].

(المصدر: السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٢/١٠١-١٠١)

## وثيقة المدينة المنورة

## وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان

علي بولاج\*

## القيمة التاريخية للوثيقة

كان المستشرق الألماني «ولهاوسن - Wellhausen» أول من عرّف هذه الوثيقة وقدمها للأوساط العلمية في العصر الحديث. وتدين إلى الأستاذ محمد حبيب الله رحمه الله وإلى بحثه الواسعة في اشتهار هذه الوثيقة في العالم الإسلامي، وفي معرفتنا معرفة شاملة بالظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية عند صدور هذه الوثيقة.

كان أول من سجل هذه الوثيقة هو محمد بن إسحاق (توفي ١٥١ هـ)؛ ويقال بأن ابن سيد الناس وابن كثير قاما بتسجيل هذه الوثيقة ودرّجها في كتبهما؛ كما قام البيهقي بإدراج الفقرات «١-٢٣» الخاصة بتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار وبين سندها. وذكر ابن هشام (توفي ٢١٣ هـ) هذه الوثيقة في كتابه «السيرة النبوية» بصورة أكثر تفصيلاً من ابن إسحاق. وتورد الوثيقة أيضاً بكاملها في كتاب «الأموال» لأبي عبيد، وفي كتاب «الأموال» لحميد بن زنجويه (توفي ٢٤٧ هـ).

وتشير كتب الحديث إلى أن الفقرات «١-٢٣» التي تناولت العلاقات فيما بين المسلمين كتبت في بيت أس بن مالك رضي الله عنه؛ أما الفقرات «٢٤-٤٧» التي تنظم علاقات المسلمين مع المشركين واليهود فكتبت في بيت بنت الحارث. علماً بأننا -إن أھلنا أسماء القبائل والأماكن- نجد أن جميع الأسس القانونية لهذه الوثيقة وجميع الأحكام والمبادئ الواردة فيها موجودة في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

والأرجح أن هذه الوثيقة كتبت ووقع عليها في العام الأول للهجرة (٦٢٢ م)، وقد قام «ولهاوسن» بتجزئة المتن الأصلي الذي أورده ابن هشام وأبو عبيد إلى ٤٧ فقرة، ثم قام حميد الله بتجزئة بعض هذه الفقرات فيما بينها فبلغ هذا الرقم إلى ٥٢ فقرة.

## البيئة الاجتماعية

إن الدعوة الإسلامية التي بدأ بها نبينا ﷺ في مكة عام ٦١٠ لم تجلب إلى الإسلام إلا نفراً معدودين. وعندما زاد عددهم بمضي الوقت جُوهوا بعراقيل ومضايقات عديدة. وبعد مضي ١٣ سنة في مكة بقي عدد المؤمنين محدوداً، فلم يبق أمام الرسول ﷺ والمؤمنين إلا الخروج من مكة إلى مكان آخر يجدون فيه الحرية والأمن، لذا اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين في بادئ الأمر ثم إلى المدينة.

كانت مكة من أهم مراكز السياسة والتجارة في شبه الجزيرة

لا يتألف إن قلنا إن «الحوار» أصبح سمّة عهدنا الحالي. الحوار يعني قيام المجموعات المختلفة للمجموعات الإنسانية التي تعيش معاً بحوار فيما بينها محاولين بذلك فهم أحدهم للآخر والاعتراف به واستخراج الأسس المشتركة الموجودة بينهم على قدر الإمكان والتي تشكل أرضية قانونية تساعدهم على العيش معاً بأمن وسلام.

ومن زاوية النظرة القرآنية فإن البشر خلُقوا بخصائص غنية ومختلفة، وإن من الخطأ إغذا هذا الاختلاف سبباً للصراع وللخصام؛ فمثل هذا الخطأ سيؤدي إلى الإخلال بالأمن وبالسلم، ويُلحق ضرراً كبيراً بالإنسانية، وينسف جميع جسور التفاهم. بينما الصواب هو عدّ كل هذه الاختلافات كزهور قواحة تملك كل زهرة منها جمالاً وعطراً خاصاً بها تشكل حديقة إنسانية مباركة.

هناك طريقتان لتعايش الناس معاً؛ أحدهما استعمال القوة والبشع، والثاني قيام الأناس الأحرار بالوصول إلى التفاهم فيما بينهم وإرساء هذا التفاهم بعقد قانوني معيّن، وتعيين أسلوب التصرف والتعامل وحقوق كل إنسان ومسؤولياته. ولم نضع الدساتير والقوانين والعهد والمواثيق الإنسانية إلا لتأمين هذا الأمر. ولا شك أنه لولا وجود متون ونصوص المعاهدات والمواثيق لما تحقق أي سلام اجتماعي ولا أي وحدة سياسية. ولكن المهم هنا أن هذه المعاهدات يجب أن تسجل بإرادة إنسانية حرة وبرضا الأطراف ودون أي إكراه.

والمواضيع المطروحة حالياً أمام الديمقراطية مهما تباينت وجهات نظرها مدخاً أو دماً، وكذلك المقاييس التي يتخذها ويتبعها أي نظام سياسي هي لتأمين قيام كل مجموعة من المجموعات الاجتماعية المختلفة باستعمال إرادتها بكل حرية لتؤثر على مراكز اتخاذ القرارات ومعرفة مدى استعمال المؤسسات المدنية لحقوقها في التعبير.

ويمكن القول بأن الإسلام يملك في هذا الموضوع تراثاً غنياً. فقد قام التاريخ الإسلامي والتجربة التاريخية للإسلام بشكل عام على قبول الخصوصيات المتنوعة لكافة المجموعات المختلفة دينية كانت أم قومية أم لغوية. وقد وجدت آداباً ومذاهب وثقافات عديدة وأقوام عديدين إمكانية العيش بأمان في ظل الإسلام.

وإن وثيقة المدينة مثال واضح وجيد يطبق في الواقع العملي فعلاً وأتمودج للعيش معاً بسلام. فلنطالع وثيقة المدينة ونفحصها من هذه الزاوية.

محتاجتين. والشئ الذي يجلب الانتباه أنه بينما كانت هناك معارك بين العرب واليهود، كانت هناك معارك بين القبائل العربية ومعارك بين القبائل اليهودية كذلك، فحسب المعلومات التي أوردها ابن هشام فإن القسم الأكبر من قبيلة بني قينقاع اليهودية كانوا حلفاء لقبيلة الخزرج العربية. وكان القسم الأكبر من قبيلة بني النضير وبني قريظة حلفاء لقبيلة بني أوس العربية. ولكن المعارك الكبيرة كانت بحري بين قبيلتي الأوس والخزرج. ويذكر المؤرخون أن حرب «بُعَاث» الطاحنة بين الأوس والخزرج استمرت ١٢٠ عاماً.

والخليفة أن هذه الحروب الضروس بين هاتين القبيلتين - اللتين كانتا تتحدران من قبيلة واحدة هي قبيلة بني قيل - دفعت المدينة وما حولها إلى الفوضى والاضطراب، وأُعلنت الأمن وأثارت نوعاً من اليأس والفتن. وقبل أيام من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فكر أهل المدينة في تنصيب عبد الله بن أبي ملكاً عليهم لكي يتم تأسيس سلطته مركزية تضع حداً لهذه الصدامات والنزاعات.

ونظراً لكون أهل المدينة على اتصال وثيق مع بيئة مزنة ومع فارس فقد رأوا أن النظام الملكي يمكن أن يؤسس النظام وينهي الفوضى. ولكن سجاية عبد الله بن أبي كانت ضعيفة، فقد كان شخصاً ضيق الأفق حرصاً على مصالحه، وكانت الخلافات العميقة التي تعصف بالمدينة تتجاوز طاقته كثيراً. وقد سهل غياب السلطة السياسية المركزية في المدينة قدوم رسول الله ﷺ إليها. فحسب رأي السيدة عائشة رضي الله عنها فإن الجوع المضطرب للمدينة ساعد على تقوية مكانة الرسول ﷺ في المدينة.

#### الأطراف الموقفة على هذه الوثيقة

كان من أوائل ما عمله الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة هو إيواء المهاجرين الجدد الذين قدموا إلى المدينة، واتخاذ التدابير اللازمة لتأمين الحاجات المعيشية الضرورية لهم ولعوائلهم. لذا قام بتأسيس علاقات التعاون الاجتماعية والاقتصادية بين مسلمي المدينة «الأَنْصَار» ومسلمي مكة «المُهَاجِرِينَ»، وأطلق اسم «اللِّوَاخِاعَة» على هذه العلاقة. وقد اشترك في عملية المؤاخاة هذه ٥ أنصاراً و ٤٥ مهاجراً، أي بلغ المجموع ٩٠ شخصاً. وتشير المصادر التاريخية إلى أنه لم يبق هناك مهاجر لم يشترك في هذه المؤاخاة.

بعد هذه التطورات التي حدثت بعد الهجرة ظهرت ثلاثة قطاعات اجتماعية في المدينة: المسلمون، اليهود، والعرب المشركون. كان المسلمون يتألفون من المهاجرين المكثين ومن أهل المدينة من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج. كانت مثل هذه البنية الاجتماعية شيئاً غريباً في شبه الجزيرة العربية وغير معروف في حياة العرب وتقاليدهم. لأن التقاليد القبلية العربية كانت قائمة على رابطة الدم والقربان، بينما اجتمع في المدينة أناس

العربية. ومما كان يزيد من أهميتها وجود الكعبة فيها - وكانت من أهم المراكز الدينية منذ السابق - ووجود أكبر القبائل العربية وأعرقها فيها. ونظراً لخصائصها هذه، فقد نُظمت مكة تنظيمًا جديداً من الناحية السياسية والإدارية. وبجانب مركزيتها السياسية والبيروقراطية كانت تبدو - بسبب وجود القبائل الحرة فيها - في مظهر حكم كوثقديري، إلا أن المدينة - مدينة الحجر - كانت تنفرد إلى مثل هذه الوحدة السياسية. لأنه بينما كانت قبيلتا قريش في مكة وتغيف في الطائف مُحققان الوحدة السياسية، إلا أن هذه الوحدة السياسية لم تكن متحققة في المدينة لوجود نزاع مستمر وحروب بين القبائل الموجودة فيها كقبيلتي الأوس والخزرج العربيين والقبائل اليهودية (قبائل بني قينقاع وبني النضير وبين قريظة). ويقول «ولهاوسن» إن رسول الله ﷺ نجح في إرساء وحدة سياسية عجيبة في ذلك الجو المضطرب في المدينة بين هذه القبائل التي كانت في حاجة ماسة إلى وحدة سياسية. وكانت هذه الوحدة السياسية أمراً جديداً وغريباً لم يألفه العرب. وتيقن الباحثون بأن الفروق بين مكة والمدينة من ناحية البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ساعدت على تجذر المسلمين في المدينة وعلى قيام وحدة سياسية جديدة هناك.

كان غياب وجود سلطة سياسية مركزية في المدينة ينعكس حتى على الحياة الاجتماعية وعلى ساحة الدفاع أيضاً. فعدم وجود دفاع مشترك في المدينة أدى إلى قيام كل قبيلة ببناء سور دفاعي قوي لها. ويذكر ابن النجار وجود ١٣ سوراً للعرب. كانت هذه الأسوار بمثابة «غيتو» يفصل كل قبيلة أو مجموعة من القبائل عن القبائل الأخرى. وكانت مصاريف الدفاع المشترك - وهو أمر خاص باليهود - تدفع من قبل صندوق شعبي. أما القبائل العربية فقد أسست ما يشبه صندوق الضمان الاجتماعي لدفع مبالغ الديارات. ومع أن اليهود كانوا يملكون التوراة إلا أنه لم يكن هناك قانون مكتوب ينظم العلاقات بين الأفراد وبين القبائل. وكانت الخلافات والمنازعات تُحَلُّ في الغالب حسب الأعراف السائدة ومن قبل حكام. ولكن نظراً لعدم وجود قوانين واضحة فإن الأطراف القوية لم تكن تأبه لقرارات هؤلاء الحكام مما كان يعني دوام الظلم وضياح الحقوق.

كانت نسبة من يقرأون ويكتبون في المدينة نسبة ضئيلة، وكان اليهود يكتلمون العربية، ويكتبون العربية بالخط العبري. وكانوا يؤدون عبادتهم ويعلمون أنماجهم في «بيت المدراس» أو «المدارس». بينما كان العرب محرومين حتى من هذه الفرصة الضئيلة. ونظراً لأنهم كانوا لا يملكون كتاباً (أي كانوا أميين) كانوا يشعرون بالضلالة والنقص أمام اليهود.

لم تكن المجموعتان العربيتان (أي العرب واليهود) مجموعتين

من أديان ومن عناصر وقوميات وأماكن جغرافية مختلفة مشكلين قطاعاً اجتماعياً مختلفاً. والدليل على هذا أن المادة الثانية من وثيقة المدينة كانت تشير إلى جماعة سياسية قائمة على أساس الدين، وهي أمة واحدة دون سائر الناس.

ولا حاجة بنا إلى ذكر أن المدينة لم تكن مؤلفة من المسلمين فقط، فقد كان فيها اليهود الذين استقروا فيها منذ زمن بعيد، وكان هنالك العرب الذين لم يدخلوا في الإسلام. لذا كان أمام رسول الله ﷺ مهمة عاجلة هي التآليف بين هذه القطاعات الاجتماعية وتأمين عيشها معاً دون مشاكل.

### حل المعضلة

بدأ الرسول ﷺ -خل المعضلة- بفحص البنية الاجتماعية والدينية والسكانية للمدينة أولاً. فقام بإحصاء سكان في المدينة، وهو أمر كان غريباً تماماً بالنسبة للتقاليد والأعراف التي كانت سائدة آنذاك. وقد تبين نتيجة الإحصاء أن عدد سكان المدينة يبلغ ١٠ آلاف شخص، منهم ١٥٠٠ مسلم و ٤٠٠٠ يهودي و ٤٥٠٠ من المشركين العرب.

ثم خطا رسولنا ﷺ خطوة ثانية فقام بتقسيم الحدود للمدينة المنورة ووضع علامات في زوايا الجهات الأربع لها، وهكذا عَيَّنَّ حدود «دولة المدينة». وحسب المادة ٣٩ من الوثيقة فإن المنطقة المحصورة في ضمن هذه الحدود الواقعة في داخل وادي يثرب (الجوف) أصبحت منطقة الحرم.

كان الرسول ﷺ يحاول من جهة إسكان المهاجرين وتأمين نكبتهم مع بيئتهم الجديدة، وبحاول من جهة أخرى طمأنة اليهود والمشركين العرب، وكان يقول لهم بأن غايته هي تأمين جو آمن لمنتمي الدين الجديد. والحقيقة أن المسلمين قد تبوأوا مضمون الوحي الذي نزل أثناء وجودهم في مكة، والذي كان يقول ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦). ولكن قريباً رفضت هذا المشروع المضمن للسماح بتعدد الأديان، وحاولت منع الرسول ﷺ عن القيام بتبليغ دينه، واختارت فتنة الراغبين في الدخول إلى الإسلام عن دينهم بالضغوط وفتون التعذيب.

ومع أنه لا يصح سوق الفرضيات، إلا أنه يمكن القول بأن مشركي مكة لو سمحوا للمسلمين بحرية الرأي والعقيدة وبممارسة دينهم وبالحرية في التبليغ، لما تمت الهجرة ولظّل المسلمون يعيشون مع غيرهم في مكة. إذ لم يكن للرسول ﷺ طوال العهد المكي سوى طليتين: أحدهما حرية القيام بتبليغ الدين، والآخر حرية ممارسة مبادئ الدين في جو آمن دون أي مضايقات. وهاتان الحريتان المطلوبتان هما من مطالب البشر في الماضي والحاضر والمستقبل إلى يوم القيامة.



فلم تكن هناك حاجة في المدينة لكي يغير الرسول ﷺ إستراتيجيته التي كان يتبعها في مكة؛ فإن حياته في المدينة كانت شريحاً وإيضاحاً واستمراراً من الناحية الاجتماعية والحقوقية والمؤسسية للوحي الذي نزل عليه في مكة. أي تنفيذ مشروع اجتماعي جماعي مستند على أساس من الحرية حيث تستطيع الجماعات التي تملك حكماً ذاتياً أن تعيش معاً في مجتمع عام، أو أن تضع نظاماً سياسياً ييسر للجميع العيش معاً بسلام. لا شك أن التبليغ (أي الدعوة إلى الدين الجديد) كان سيستمر ولكن بشرط عدم إكراه أي شخص على اعتناق دين معين، وكذلك رفع جميع العوائق أمام من يرغب في تبديل دينة.

وعقب الوصول إلى المدينة عقد مجلس كبير ضم الأنصار ونقباء المهاجرين حيث تم فيه في الأرجح مداولة الأحكام والأسس القانونية لعملية التناحي التي ذكرناها سابقاً. وقد تم تعيين المواد ١-٢٣ من هذه الوثيقة وتدوينها في هذا الاجتماع، أي تم تسجيل شكل العلاقات الاجتماعية والقانونية للجماعة الإسلامية وتبنيها في مواد قانونية مكتوبة.

بعد ذلك قام الرسول ﷺ بمشاورات عديدة، ليس مع رؤساء قبائل المسلمين فحسب بل أيضاً مع زعماء ومثلي الجماعات الأخرى من غير المسلمين. كان الاجتماع الأول مع المسلمين في بيت أنس بن مالك ﷺ، ثم مع زعماء المسلمين واليهود في بيت بنت الحارث حيث تم التفاهم على المبادئ الأساسية لـ «دولة المدينة» الجديدة. وفي رأي العالم المحقق محمد حميد الله فإن هذا «الدستور الجديد للدولة» كان من زاوية عقدًا اجتماعيًا بين الجماعات للتضوية تحت مظلة هذه الدولة الجديدة، وهذا الدستور هو وثيقة المدينة الموجودة بين أيدينا حالياً.

لا شك أن كلا الاجتماعين جريا في جو من الحوار الحر، فقد طرّح ممثلو الجماعات المختلفة طلباتهم وأولوياتهم، واستمعوا إلى آراء الآخرين وتجادلوا فيما بينهم وحددوا النقاط الأساسية والإطار المشترك ثم سُجِّلَ متن هذا الإطار.

### أحكام الوثيقة

برى الأستاذ محمد حميد الله بأنه إلى جانب كون هذه الوثيقة دستور الدولة الإسلامية الأولى، فإنها كانت في الوقت نفسه أول دستور مكتوب في العالم آنذاك. ويتضح من المعلومات الواردة إلينا عن طريق أنس ﷺ وعن طريق آخرين بأن هذه الوثيقة ظهرت كإجماع واتفاق جميع الأطراف عليها في نهاية هذه المحادثات، وهذا هو الصحيح؛ لأنه لم يكن من الممكن قيام الرسول ﷺ الذي اضطر إلى الهجرة من مكة ليلاً وبشكل سرّي بإجبار الآخرين على كتابة وثيقة تلي رغباته فقط، علماً بأن أتباعه لم يكونوا يتجاوزون ١٠٪.

من سكان المدينة؛ أي إن إرغام الأطراف الأخرى -التي كانت آنذاك أكثر عدداً وعُدّة من أتباعه- على قبول الوثيقة كان مستحيلاً.

ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى قبول هذه الوثيقة الجماعية في ختام المباحثات التي أجراها النبي ﷺ مع الأطراف الأخرى والتي استندت إلى أخذ إجماع كل الأطراف، هو إيقاف الفوضى وغياب الأمن الذي تردى فيه أهل المدينة بعد ١٢٠ عاماً من القتال والبغضاء، ولم تستطع المدينة أن تصل بنفسها إلى حل واستقرار وسلام اجتماعي وسياسي مع القوى الاجتماعية فيها. فكأنها كانت تنتظر منفذاً لها. وبينما كانت هذه المدينة تنفّس بآسمرار إلى الوراء اقتصادياً بسبب الحروب المستمرة، كانت هناك في الأفق نذر حرب جديدة. وفي هذا الوقت خرج ظهر شخص أحتجى عنها أشبار إلى طرق إمكانية العيش معاً بأمن مع كافة المجموعات الموجودة الأخرى، ودعا الجميع إلى الارتباط بالأسس القانونية التي تعطي لكل ذي حق حقه.

والنقطة المهمة الثانية هي قبول كل طرف وجود الأطراف الأخرى كظاهرة وعدم القيام بأي ضغط عليها، وقبولها كما هي، وكما تقوم بتعريف نفسها، واحترام حق الحياة لها، واحترام أفكارها، في ظل القانون ونحت حمايته.

وبجب ألا ننسى أن اليهود -الذين كانوا طرفاً في هذه الوثيقة- لم يكونوا يُعدون «ذَمِينِينَ» ولم يكونوا إذن يعطون الجزية لأي حكم أو سلطة أو دولة خارجهم. لأن آية الجزية نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهذا يبين بأن الأطراف المشاركة في الوثيقة لم تكن تُعطي الجزية حتى تلك السنة، أي لم تكن تُعد من الذميين.

بجانب هذا، فقد اشترك العرب المشركون في هذه الوثيقة باعتبارهم -حسب العادات والأعراف العربية- من «السَّوَالِي». فحسب هذه الأعراف إن دخلت قبيلة أو عشيرة أو جماعة في معاهدة فإن حلفاءها السابقين (أي مَوَالِيها) يكونون طرفاً غير مباشر في تلك المعاهدة. ونحن نعلم من سورة «برائة» أن المشركين العرب بقوا مدة طويلة يعيشون في المدينة. وكانت سورة «برائة» إنذاراً بقطع جميع العلاقات السياسية وإنذاراً بالحرب. ومع ذلك فإن المشركين العرب المعاهدين كانوا مُسْتَشْتَرِينَ من الحرب لا بمسهم أحد بسوء ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَهُمْ يُظَاهَرُونَ عَلَيْكُمْ أَوْ قَاتَلُوا لِتَحْمِلَهُمْ حَبْلَهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آية: ٤٠).

#### المبادئ الأساسية في الوثيقة

المبدأ الأول: يجب على كل مشروع مثالي يريد تحقيق الحق والعدل واحترام القانون والحقوق ويهدف إلى تحقيق السلام والاستقرار بين الناس أن يظهر بين الجماعات المختلفة (من

الناحية الدينية أو السياسية أو الفلسفية... إلخ) على أساس من معاهدة وعقد. وبجيب حضور جميع الأطراف الاجتماعية أو مَنْ يُمَثِّلونها في أثناء تهيئة ووضع هذه المعاهدة أو العقد، وأن يتم هذا في جوٍّ من الحرية والحوار والمباحثة والذاكرة بين هذه الأطراف. ونظراً لتكون هذه الأطراف جماعات غير متجانسة كان من الضروري أن تكون كل مادة من مواد الوثيقة تحمل طابع للمشاركة وطابع الالتقاء بين هذه الأطراف، وأن تُسجِّل نتيجة التصويت عليها. وكل مادة تكون موضع خلاف بين الأطراف تُترك لهذه الوثيقة، وكل مادة تكون موضع خلاف بين الأطراف تُترك لهذه الأطراف. فالفقرات المُجمَع عليها تدخل في ساحة المعاهدة، والفقرات المختلف عليها تدخل في مجال الحرية الذاتية (أو الحكم الذاتي). وهذا دليل على الاختلاف الفَرِّي الموجود ضمن الوحدة، أي هو «الجماعية» الصحيحة.

المبدأ الثاني: وهو اختيار مبدأ «المشاركة» بدلاً من مبدأ «التحكيم»، لأنه في ظل الحكم السياسي الدكتاتوري لا يتم قبول التنوع والاختلاف، بينما ترى أن وثيقة المدينة تذكر أسماء القبائل المسلمة وأسماء القبائل اليهودية قبيلة تلو قبيلة، كما تشير إلى المشركين في مادة أخرى (المادة: ٢٠/ب). وكلمة «المولى» الواردة في الوثيقة تشير إلى القبائل والعشائر والمجموعات التي دخلت في عهد أو اتفاق مع إحدى القبائل دون وجود أي قرابة دم معها. وهذا يعني أن كل طرف من الأطراف الاجتماعية التي وقَّعت على هذه الوثيقة كان يمثل أيضاً القبائل والمجموعات المرتبطة بها، وكان يعطي نفس الحقوق والمسؤوليات لها. إلا أن المادة رقم «٢٠/ب» كانت تشير إلى أحكام خاصة بالنسبة للمشركون العرب، وكانت هذه الأحكام تؤيد بالمادة رقم «٤٣» كذلك. وكانت الغاية من هذه الأحكام منع مشركي المدينة من أي تعاون مع مشركي مكة سياسياً كان أم عسكرياً. هذا علماً بأن مشركي المدينة لم يكونوا يحملون أي رغبة في التعاون مع مشركي مكة، لأنهم كانوا يخافون من أن يجلب هذا التعاون مشاكل لهم. ولكنهم كانوا يرغبون في التمتع داخل دولة المدينة (المُوضَّحة في المادة: رقم ٣٩) بكل الحقوق والحریات مع الآخرين. وقد قامت الوثيقة بتأمين وضمان هذه الحقوق والحریات لهم أيضاً وعلى أساس من القانون. ونحن نعلم بأن مشركي المدينة -وهم طرف في وثيقة المدينة- استمروا في العيش في المدينة حتى بعد معركتي بدر وأحد التَّين جرّتا مع مشركي مكة، ولم يحدث أي مشاكل بينهم وبين المسلمين.

ونستنتج مما تقدم أن كل مجموعة دينية وعرقية كانت تملك حرية ثقافية وحقوقية؛ أي إن موقف كل طرف من ناحية

الدين وتشريع القوانين المتعلقة بالمجتمع والمحكمة والثقافة والتجارة والفن والعبادة وتنظيم الحياة اليومية... الخ. مواقف هذه المجموعات والطوائف المختلفة ستبقى كما هي وكما نرغب وتستطيع التعبير عن نفسها في هذه الساحات بجزية من خلال المقاييس القانونية والثقافية. والمادة التي كانت تُصنّف هذه الحقوق هي المادة رقم «٢٥».

أما المادة رقم «٤٢» فتذكر بأنه في حالة ظهور أي خلاف يخشى من عواقبه يتم الرجوع فيه إلى الرسول ﷺ. والظاهر من الآيات القرآنية ومن أحاديث الرسول ﷺ ومن مصادر السيرة النبوية فإن هذه المادة قد أقرحت من قبل اليهود والمشرّكين. لأن الوضع الفوضوي في المدينة كان قد هز الثقة والاطمئنان بين القبائل. لذا فقد اتفق جميع الأطراف على رفع المشاكل التي لا يستطيعون حلّها إلى مرجع أعلى يقوم بحلّها. وكان هذا المرجع هو رسول الله ﷺ الذي كان مرجعاً مبادئاً أتى من خارج المدينة. وكان القرآن الكريم يذكر له أن يؤسّس النظر في دعاوى القوم إن أراد ذلك ويعطيه هذه الصلاحية ﴿إِن كَانَ حُكُومُ قَوْمٍ بِرَسُولِهِ أَوْ عَصِىَ عَنْهُمْ﴾ (النساء: ٥٩). وعلى إثر هذه الآية كان الرسول ﷺ يتجرّ من يراجه منهم وكان يسألهم ما إذا كانوا يريدون أن يحكم بينهم بالقرآن أم بالفوراء؟ أي إن الرسول ﷺ كان في موضع «الحكم» وليس في موضع «الحاكم». ويجب أن نضيف هنا أن النظر في قضايا غير المسلمين أو إعطاء حق حل مشاكلهم ودعواهم - لا سيما الدعاوى المذنية منها - في محاكمهم وضمن قوانينهم أصبح منذ ذلك اليوم حقاً من حقوق الذميين، واستمر هذا الأمر حتى نهاية الدولة العثمانية.

أما المادة «٢٣» فكانت تشير إلى أن الرسول ﷺ هو الحاكم للطلق في الأمور الدينية للمسلمين، ولكنه يستشير الآخرين في المسائل الإدارية. وكان هذا أمراً طبعياً، لأن المسلمين كانوا قد باعوه ورضوا بالارتباط به والافتقار له منذ البداية. وهو أمر مناسب لأسس الدين الإسلامي الذي لا يفرق بين العبادة والحقوق. وهذه المادة - كمبدأ أساسي - تؤكد أن الدين الإسلامي يلزم المسلمين فقط.

والذين يتّهمون الإسلام ويصومونه بالديكتاتورية لا يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة. لأن الناس إن كانوا أحراراً في اختيار دينهم ولهم مثل هذا الحق فإن هذا يؤدي - وبعبارة أيضاً - أن الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية والقوانين المرتبطة بها يجب أن تكون متلائمة مع الدين ومع الأفكار الدينية. وفي هذا الوضع فإن الدين الإسلامي والقوانين الإسلامية تلزم المسلمين فقط، ولا تشمل الآخرين، ولا يُطلب من غير المسلمين التصرف حسب هذه القوانين. وهذا شرط - وكذلك ضمان - لحرية الدين والوجدان وحرية التعبير والسماح

للآخرين بالعيش حسب أديانهم. وقد حقق الرسول ﷺ هذين الشرطين قبل ١٤٠٠ سنة وتم تسجيلهما في إطار القوانين والحقوق، بينما لم يتحقق هذا حتى الآن في عصرنا الحالي.

كانت هذه الوثيقة عالمية وموضوعية وفوق الطوائف الاجتماعية، أي لم يكن يوسع المسلمين واليهود والمشرّكين الخروج خارج نطاقها العام.

كان هذا وحده انقلاباً ولورة كبيرة. ففي هذه البنية القانونية الجديدة التي لا تتم فيها حماية المجرم من أي طائفة أو جماعة تتجلى العدالة وتسود الطمأنينة وتظهر وتصبح مسؤولية اجتماعية مشتركة بين جميع الأطراف (المادة: ١٢ و ١٣ و ٢١). ويعني هذا أن الجرائم والعقوبات أصبحت فردية، وانفتح مفهوم الجرائم والعقوبات الجماعية. ولكن قيام قبيلة الجاني بدفع دية المقتول لم يكن يُحلّ في ظروف وجود ذلك العهد بهذا الأساس القانوني. كما كانت الفقرة «١٢/ب» تسمح للأشخاص بالقيام - خارج هذه الوثيقة - بعقد اتفاقات أخرى مع موالى الأشخاص الآخرين.

إن الناحية التي نلحظها في هذه الوثيقة أنّها وثيقة مكتوبة في عام ٦٢٢م، نتيجةً لمباحثات ومشاورات بين قطاعات دينية واجتماعية مختلفة، وأنّها وضعت للتطبيق العملي.

هذا ويمكننا أن نستخرج كليات أساسية من أحكام هذه الوثيقة إن قمنا بعملية تجريد وتعميم لها، ومن ثمّ يمكن لهذه الكليات الأساسية أن تكون مصدر إلهام في حل كثير من المشاكل اليوم. وهناك العديد من الأحاديث والآيات والعديد من التجارب الذاتية والمحلية في تاريخ المسلمين، وكذلك العديد من أحكام الشريعة الإسلامية التي تؤيد المشروع الكبير الذي استهدفه هذه الوثيقة. وإن التجارب التي حلّت بها التاريخ الإسلامي في هذا الموضوع كانت انعكاساً لروح هذه الوثيقة بخطوطها العامة وشرحاً وتطبيقاً لها. إننا ونحن نعيش في هذا العصر مشاكل عدّة مثل النزاع العربي الإسرائيلي والنزاعات الإقليمية ودعوى صراع الحضارات والعمليات الإرهابية نرى أننا في حاجة ماسة إلى مشاريع تنمّذ من التعاقد والحوار والمباحثات أساساً لها، أي نحتاج إلى مشاريع تؤمن بالتعددية وتسمى لها. [١]

(٥) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

#### المصادر:

(١) صحيح البخاري.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٤) الوثائق السياسية لمحمد حيد الله.

(5) Wellhausen, Skizzen und vorarbeiten.



«الحق أن النبي ﷺ لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحى إليه في غار حراء؛ ففضى حياة يعجب الإنسان بها. والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقبل الدنيا.. فقد نبت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي..»  
إميل درمنغم مستشرق فرنسي، عن كتابه «حياة محمد»

# وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا

\* د. زغول النجار



الليل والنهار آيتين من آياته الكونية التي تستحق من كل إنسان عاقل أن يتوقف عندها وأن يتأمل دلالاتهما؛ وذلك لأن تبادل كل من الليل والنهار واختلافهما وتعاقبهما هو من الأمور اللازمة

لاستقامة الحياة على الأرض، لأنه بدون ذلك التبادل ما كان ممكناً للحياة أن تقوم أو أن تنظم في مسيراتها المختلفة؛ وذلك لعدم انتظام توزيع الطاقة على سطح الأرض، ولتلاشي الإحساس بمرور الزمن وتتابع الأحداث.

## أهمية تعاقب الليل والنهار

فهذا التبادل بين الإضاءة والنور يتم التحكم في درجات الحرارة والرطوبة وكميات الضوء اللازمة للحياة الأرضية في مختلف بيئاتها؛ كما يتم التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية من مثل التنفس، التمثيل الضوئي، الأيض، كما يتم ضبط التركيب الكيميائي للغلاف الغازي المحيط بالأرض، ويتم دورة الماء بين الأرض والسماء، ويتم ضبط حركات كل

## مدلولات النوم

جاءت لفظة «النوم» مشتقاً في القرآن الكريم سبع مرات. <sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٧). وجاء التعبير عن النوم بلفظ «النعاس» و«نعاساً» في موضعين من كتاب الله العزيز. <sup>(٢)</sup> يقول تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَىٰ كُفْرًا أَتَيْنَهُ مِنَ اللَّهِ الْغَاسِقُ﴾ (الأنعام: ١١). وكذلك جاء التعبير عن النوم بلفظة «السكن» ومشتقاً سبع مرات. <sup>(٣)</sup> وبمعبر «السبات» مرتين. <sup>(٤)</sup> يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبا: ١١-٩). وجاء التعبير عن النوم بلفظة «بياتاً» في ثلاثة مواضع. <sup>(٥)</sup>

كذلك ذكر الليل في القرآن الكريم في (٩٢) موضعاً، وذكر النهار في (٥٧) موضعاً، بالإضافة إلى ورود لفظتي «الصباح» و«الإصباح» ومشتقاهما بمدلول النهار في مواضع عديدة من كتاب الله (٤١) مرة؛ وكذلك لفظة «اليوم» ومشتقها (وحدات) في ٣٦٥ موضعاً لتدل على بعض هذه المواضع على النهار؛ ولفظة «الفلق» ومشتقها والتي جاءت كذلك بمدلول النهار في موضعين. <sup>(٦)</sup> قال تعالى ﴿فَالْقُلُوبُ الْإِصْبَاحُ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦). وفي هذه الإشارات القرآنية يذكرنا ربنا تبارك وتعالى بأنه قد جعل

تُبْصِرُونَ ﴿ وَمَنْ رَحِمْنَاهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الفصل: ٧٤-٧٣).

ومعنى ذلك أن الله تعالى قد جعل للإنسان دورةً يومية مع تعاقب الليل والنهار، يَبدؤها بالتبكير لصلاة الفجر، والقبولة في الظهر، والاستيقاظ قبل صلاة العصر، وعدم السهر بعد أداء صلاة العشاء إلا للضرورة، وذلك لتوفير إمكانية القيام في الثلث الأخير من الليل لأداء سنة التهجد. ولذلك أخرج الإمام أحمد في مسنده قول الرسول ﷺ: «لا سَمَرُ بعد الصلاة -يعني العشاء الآخرة- إلا لأحد رجلين: مصلٍّ أو مسافرٍ». ولا يَرْتَفِعُ في ذلك إلا لطلب العلم أو أداء ما لا بد منه من أعمال. كذلك قوله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: «أغلقوا الأبواب بالليل، وأطفئوا الشَّرْجَ، وأوكوا (أي: أحكموا أربطة) الأسقية، وجرهوا (أي غطوا) الطعام والشراب ولو أن تعرَّضُوا عليه شيئاً».

وقد ثبت بالتجربة العمليّة وبالتحاليل المخبرية أنّ أصحَّ نوم الإنسان هو في الساعات الأولى من الليل (ثُلثي الليل الأوّلان)، وأنَّ نشاط جسم الإنسان يتحرك من حده الأدنى إلى حده الأقصى ثم يتراجع ليصل إلى الحد الأدنى في دورات منتظمة وفق خطة يومية ثابتة تحددها العوامل الوراثية وتضبطها أو تشوّهها الممارسات الفردية.

ففي أثناء النهار ينشط في جسم الإنسان كل من أجهزته التالية: الجهاز العصبي، الدوري، التنفسي؛ كما يزداد إفراز كل من الهرمونات التي توفر الطاقة للجسم مثل «الكورتيزون» والهرمونات المحفّزة لإفرازه، وتزداد حاجة الجسم إلى الكربوهيدرات وفي مقدمتها السكر، وينشط تحليل كل من البروتينات والدهون لتعطي طاقة الحركة والنشاط للجسم.

بينما في الليل يزداد إفراز الهرمونات الداعية للجسم إلى الراحة والاسترخاء مثل «الميلاتونين» و «البورستاجلاندين»، كما تنشط دفاعات الجسم الذاتية من مثل الجهاز العصبي غير الودي، والجهاز الليمفاوي، وكرات الدم البيضاء، وغيرها من أجهزة المناعة في الجسم؛ بينما يقل إفراز هرمون «الكورتيزون» و «الأدرينالين»، و «الكورتيزول» وكلها من الإفرازات المنشطة للجسم.



من الرياح والسحاب ونزول المطر بإذن الله تعالى وغير ذلك من العمليات والظواهر التي بدونها لا يمكن للأرض أن تكون صالحة لاستقبال الحياة.

ونحن نعلم أن كل صور الحياة الأرضية لا تتحمل مواصلة العمل دون أخذ قسط كامل من الراحة وإلا هلكت، وينطبق ذلك على كل من الإنسان والحيوان والنبات.

### العقل البشري والنوم

فالإنسان يحتاج إلى أن يسكن بالليل، وإلى أن يخلد فيه إلى شيء من الاسترخاء والراحة والعبادة والنوم حتى يستعيد نشاطه البدني والذهني والروحي والنفسي، ويستجمع قواه للعمل في النهار التالي وما يتطلبه ذلك من حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض. وذلك لتعويض ما فقده الجسم من خلايا أثناء بقاءه وترميم ما تلف منها وتجديد ما يحتاج الجسم إلى تجديده. وقد ثبت بالتجربة أن مخ الإنسان هو أكثر أجزاء جسده حاجة إلى النوم. ولذلك يَمُنُّ علينا ربنا تبارك وتعالى بجعل الليل للراحة والسكن، وجعل النهار للكدح والعمل فيقول عز من قائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ  
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا





وينظّم نشاطَ جسم الإنسان بالنهار وينبّطه بالليل ما يُعرف باسم «الساعة الحيويّة»، وهي عبارة عن مركز في المخّ فيما يُعرف باسم «الثّوة فوق التّصلّابية» وينتشر منها إلى العديد من خلايا الجسم وأنسجته. ويتحكم في هذه الساعة أربع من حاملات الصفات الوراثية (المورثات أو الجينات) التي تتأثّر بدورة الظلام والنور والضوضاء والسكون، وبذلك تتحكم في ساعات اليقظة والنّام.

### الساعة الحيويّة وأوقات الصلاة

وعلى ذلك فإنّ النوم كظاهرة حيوية أمر لازم للإنسان؛ فيه يفقد جزء من إدراكه فتتقطع حواسّه عما يحيط به وتظلّ أجهزته الجسدية في العمل، فيأخذ كلّ من عقله وبدنه قسطاً من الراحة ليعود بعد يقظته حيويّاً نشيطاً قادراً على مواجهة مسؤولياته؛ وعلى ذلك فإنّ النوم نعمة من نعم الله العديدة على الإنسان، كما أن الانتظام في أداء الصلوات الإسلامية على وقتها يضبط الساعة الحيويّة في جسم الإنسان ضبطاً دقيقاً يتوافق مع ما فطره الله تعالى عليه.

فاليقظة مبكراً لأداء صلاة الفجر يتوافق مع الدروة في إفراز هرمونات النشاط في جسم الإنسان. والقبول بعد أداء صلاة الظهر تزيل التوتّرات النّاتجة عن النشاط الصباحي وما يصاحبه من إفرازات للهرمونات المعينة عليه، وتعطي لجسم الإنسان الفرصة لأخذ قسط من الراحة. والاستيقاظ لأداء صلاة العصر يتوافق مع قمّة إفراز الأدرينالين المعين على البعد عن التوتر. والاستعداد لصلاة المغرب إيذاناً ببداية ليل حديد يصاحبه زيادة واضحة في إفراز الهرمونات التي تعين على الاسترخاء من مثل هرمون «الميلاتونين».

وختام النشاط بأداء صلاة العشاء والاستعداد للخلود إلى النوم في أكثر ساعات الليل مروّمة لتلقي جسم الإنسان قسطه الكافي من الراحة في ثلثي الليل الأولين، ليقوم في ثلثه الأخير لأداء سنة التهجّد في أوبرك ساعات الليل، ويستعد لأداء صلاة الفجر مع أول خيوط النهار الجديد، ومع بدء دورة جديدة للساعة الحيويّة في داخل الجسد وفي وقتها المضبوط حسب فطرة الخالق حلّ حلاله لها.

### علاقة النوم بالموت

يقارن القرآن الكريم النوم بالموت ويعتبره موتة صُغرى تُذكر الإنسان بالموتة الكبرى التي هي حتماً قادمة في موعد لا يعلمه إلا الله تعالى، وذلك لأنّه في كلّ من الخالتين تغادر الروح الجسد

مغادرة مؤقتة في حالة النوم ومغادرة مستمرة إلى يوم البعث في حالة الموت. وقد أثبت بروفسور «آرثر آينس» رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن في بحثه المقدم إلى مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي عقد بالقاهرة سنة ١٩٨٥م أن هناك قدراً من الطاقّة يغادر جسد الميت ولا يعود، بينما يغادر جسم النائم ويعود إليه عند استيقاظه؛ وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرمر: ٤٢).

### من آيات السّنة في النوم

يَسِّنُ النوم على الجانب الأيمن منجّها إلى القبلة؛ وقد أثبتت الدراسات الطبية أن هذا هو وضع لنوم الإنسان لتخاشي ضغط الأحشاء على القلب وعلى كلّ من الأوردة والشرايين الرئيسية في جسمه. وقد ذكر ربنا تبارك وتعالى في سورة الكهف في آية ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (الكهف: ١٨) أن أصحاب الكهف الذين ناموا المدة ٣٠٠ سنة شمسية (٣٠٩ سنة قمرية) كانوا في أمسّ الحاجة إلى أن يقلبوا ذات اليمين وذات الشمال حتّى لا يصابوا بما يعرف باسم «التقرّحات السريرية» والتي تصيب المرضى الذين لا يستطيعون النهوض من السرير فتتقرح جثثهم والله تعالى أعلى وأعلم. ﷻ

(هـ) أستاذ علم الأرض - مصر.

(١) البقرة: ٢٥٥؛ الأعراف: ٩٧؛ الأنفال: ٤٣؛ الفرقان: ٤٧؛ الروم: ٢٣؛ الصافات: ١١٠، ١١٢؛ الزمر: ٤٢؛ القلم: ١٩؛ والبيّأ: ٩.

(٢) الأنفال: ١١١ وآل عمران: ١٥٤.

(٣) الأنعام: ١١٣، ٩٦؛ يونس: ٦٧؛ القصص: ٧٢، ٧٣؛ عاف: ٦١؛ والنمل: ٨٦.

(٤) الفرقان: ٤٧؛ والبيّأ: ٩.

(٥) الأعراف: ٩٧؛ ويونس: ٥٠.

(٦) الأنعام: ٩٦؛ والفلق: ١.



## فَلْتَهْدِلِ الْحَمَائِمُ عَلَى شُرَفَاتِ الرُّوحِ

عارف نهاد آسيا \*

كانت سَجَادَتِكَ الرمال...  
وأصواتُ الأذانِ تَعْلُو،  
من العصور.. ومن الديار،  
وتلتقي في السماوات.  
مؤمنةٌ كانت المساجد، مؤمنة المنابر!  
والتكبير يَفِضُ وينضج من القباب...  
قِيَابُ عَمَلُهَا دعواتُ آمين.  
وفي الليالي المباركة...  
لم تكن دعواتنا ترجع حائبة،  
في ليالٍ تفرّج أنواراً.  
كل من حاء إلى بابك، من قريب أو بعيد،  
مؤمنا عاد، يا محمد...  
لما كانت البسملة بركة خبزنا،  
وأنتك عزيزة في الدنيا والمعاد، يا محمد...  
فَلْتَحِطَّ الْحَمَائِمُ عَلَى شُرَفَاتِ الشَّيَابِكِ من جديد،  
وَلْتَحِطَّ نَدَاءَاتُ الذِّكْرِ: هو.. هو، بدعاء «آمين»  
إنها ليلة مباركة، فِهْلُونا يا «فواتح»، ويا «يواسين»<sup>(١)</sup>  
الأمهات يذكرك بكيات، في هذه الأيام؟  
يا يتيه الأيتام، يا غريب الغرباء،  
كنت للمستضعفين حناحاً..  
وصاحباً للفقراء،  
يا رسول.. فأين أنت؟  
يا نبي.. أين أنت الآن؟  
أيام مضت، ما أحلاها، يا محمد...  
ما أحلاها من أزمان!  
قبل ميلادك، وَقَعَ في قلبِ مؤمنين بك الإيمانُ،  
حين طَلَعَتِ الغفلة مثل الصبحارى،  
بكى يتيه «عبدالله»... وأمانة «آمنة»،  
في حجرٍ «حليمة».  
وكنْتَ لـ «خديجة» زهرة، ولد «عائشة» ورداً،  
وبُؤَيُّ عَيْنِ الأمة، ورسولُ السماوات.  
بُهِتَتْ رسولاً، وأرسلَتْ إلى الأصقاع رسلاً.

سَلِمَتْ روحك لله، ومددت يدك للأمة مدّاً.  
هاجرت إلى المدينة، إذ ضاقت بك أرض مكة؛  
وكانت لك مأوى ووطناً ومهداً.  
فلما أين المفرّ والدنيا بنا تضيق، يا محمد؟!  
التفاق والكفر والخيانة في الأرض،  
في عصرٍ لنا من ذهب!  
وتدعي الألسن والصفحات والسطور:  
أَنْ مات أبو لب!..  
هذا أبو لب حي، يا محمد..  
وأبو جهل الجَهْلُ، في القارات يهول..  
ما أحلى ما سمعت أذاننا بالهامة بالمواليد!  
ما أحلى أسماءَ حَفَظَتْهَا شفاهاً..  
التي تعودت على اسمك.. يا نبي!  
ثم نسيت خطواتنا اتباعاً أترك في الطريق،  
فاليوم إذن سوادُ الأسفار بالكعبة يليق.  
آمالنا في حرب مع المفاجر،  
والفخر في جبلٍ قافٍ، أمير متسلط قاهر.  
الضماير خراب... والوجدان تالف.  
فهات الحسنات قبل الغد، وهات اللطائف؛  
لأبناء آدم.  
هذه الأسوار التي تراها.. بعضها خير، وبعضها طائف.  
لم نفتحها، يا محمد، وقد مضت السُّنُون..  
فلا صدق ولا استقامة... ولا حسنات ولا خير.  
وأجمل الأغصان في البساتين، نسيت كيف تنمر.  
وفي جوف الأثام، معسلة الحرام.  
فَرِحَ مَنْ فرح، كأنه عيد!  
فَرِحَ من أفرغ ماء «السماوة»،  
وصبّه في «ساوة»  
وأتعب حيله مَنْ أتعب،  
بقفرة واحدة من الخنادق.  
فَلْتَبْكِي يارب، وليبكِ كلُّ «سَلَمَان»<sup>(٢)</sup>



فَلْتَحْطُ الْحِمَامُ عَلَى شُرَفَاتِ الشَّيَابِكِ مِنْ جَدِيدٍ،  
وَلِتَحْطُ نَدَاءَاتُ الذِّكْرِ: هُوَ .. هُوَ، بِدَعَاءِ «آمِينَ»  
إِنَّمَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، فَهَلُمُوا يَا «فَوَاتِحُ»، وَيَا «يَوَاسِينَ».  
أَيْنَ يَا سَحَابُ، رُؤُوسُ ظِلِّهَا بِالظَّلَالِ؟  
وَهَلْ تَذَكَّرُ، بِطَرِيقِ، مِنْ سَارُوا رِفَاقَ دَرْبِ،  
مَعَ سَافِرٍ حَبِيبٍ..  
عَبَرُوا الصَّخُورَ وَالْجِبَالِ،  
قَافِلَةٌ تَلُو قَافِلَةً، وَرَكِبُوا تَلُو رَكِبَ،  
فِي صَحَارَى لَا تَحْدُهَا أَفَاقُ..  
لَا زَالَتْ الْأَنْأَارُ لَمَنْ قَدَّمُوا،  
وَلَمَنْ يَرِحُلُونَ الطَّرِيقَ..  
وَهَذَا الْغَارُ الْمَكْبَرُ، لَيْسَ لِلْعَنَاقِبِ؛  
بَلْ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ..  
لَمْ يَكُنِ الْعَنَكِبُوتُ فِي الْهَوَاءِ،  
وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي الْمَاءِ،  
بَلْ فِي عَيُونِ عَنِ الْحَقِّ عَمِيَاءُ!  
وَهَذَا الْغُورُ السَّحِيقُ،



أَمَلَاذُ هُوَ لِلْحَنِّ .. أَمْ تَوَلَّى لِلْمَلَائِكِ؟  
وَهَذَا الْعُشُّ، الَّذِي يَجْهَلُ مَا يَسْكُنُهُ،  
أَحْمَامَةٌ، أَمْ فَاحِشَةٌ، أَمْ هَدَّاهُ؟  
وَهَلْ أَطْلَقَ طَيْرُهُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَجَرًا؟  
يَا أَيْتُهَا الْمُتَرَفِّةُ الرَّاقِدَةُ فِي «أَبْوَاءِ»،  
فِي رَوْضِكَ تَفْتَحُ زَهْرَةً؛ أَجْمَلُ مَا فِي الْكَوْنِ زَهْرًا..  
لَتَنْمُ ذِكْرَاكِ مَدْرُوءَةٌ بِدَفْعِ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ!  
لَا زَالَتْ الصَّحْرَاءُ تَجِيبُ مَنْ يَصْخُرُ لَهَا سَمْعًا؛  
فِيصَمْتُ «يَا لَيْلُ» وَيَهْدُرُ صَوْتُ هَدْرًا..  
«أُخَذُ» يَقْرَأُ رِثَاءً، وَ «بَدْرُ» يُشَدُّ شَعْرًا..  
وَأَنْتِ، أَيْتُهَا الْمَدِينَةُ،

اجْعَلِي مِلْحَمَةً مِنْ إِبَابِ مَائَةِ أَلْفٍ،  
فِي يَوْمِ حَجٍّ؛  
يَقْدُمُهُمْ مُحَمَّدٌ، وَفِي جَنِّهِ أَبُو بَكْرٍ..  
فِي أَبِي بَكْرٍ نُورٌ، وَفِي عُثْمَانَ أَنْوَارُ..  
وَعِمْرٌ يَتَحَدَّى وَجْهَ كُلِّ قُرَشِيٍّ جِبَارِ..  
وَعَلَيٌّ يَفْتَحُ الْأَبْوَابَ..  
أَمَامَ عَلِيٍّ تَنْحَنِي الْأَسْوَارُ.

وَيَسْتَشْهَدُ أَبْطَالُ الْحَقِّ؛ مَنْ شَهِدُوا خَيْرَ وَأُخْدًا وَبِدْرًا،  
فِي أَيَّامِ سَعْدٍ، يَحُلُو فِيهِ الْمَوْتُ..  
تِلْكَ أَرْوَاحٌ بِجَنَّةٍ، لَا يَفْرُ هَا فِي الْأَرْضِ قَرَارِ..  
فَلْتَحْطُ الْحِمَامُ عَلَى شُرَفَاتِ الشَّيَابِكِ مِنْ جَدِيدٍ،  
وَلِتَحْطُ نَدَاءَاتُ الذِّكْرِ: هُوَ .. هُوَ، بِدَعَاءِ «آمِينَ»  
إِنَّمَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، فَهَلُمُوا يَا «فَوَاتِحُ»، وَيَا «يَوَاسِينَ»..  
أَقْبِلْ، يَا مُحَمَّدُ، بِالْإِلْفِ وَالْخَيْرِ وَالطُّيُوبِ؛  
عَلَى أُنْبَاءِ آدَمَ،

قَبْلَ أَنْ يَغَادِرَ الْوَحْدَانَ الْمَعْطُوبِ؛ إِلَى الْغَدِ..  
وَلْيَفِضْ الْإِيمَانَ وَلْيَطْفُخْ مِنَ الْقُلُوبِ،  
وَلْيَشْدُ «عَطْرِي» بِالْتَكْبِيرِ فِي أَجْلِ الْإِلْهَانِ،  
وَلْيَتَلَّ الْأَوْلِيَاءُ الْقُرْآنَ،  
وَلِتَنْتَشِرَ الْآيَاتُ الْمُنْقُوشَةُ بَنُوِي الْعَيُونِ،  
فِي خَطِّ «قَائِشِ زَادَةَ عُثْمَانَ»؛  
وَلْيَكْتُبْ مَدْحَكَ «غَالِبُ»، وَمَوْلَيْدَكَ «سَلِيمَانَ»  
وَلْيَعُدَّ «سَنَانُ» وَأَلْفَ سَنَانِ،  
فِي الْقِيَابِ وَالْأَعْمَدَةِ وَالْأَطْوَاقِ..  
وَلْيَسْلُ مِنْ بَنَوِي الصَّلَاةِ عَلَى حَنَازَةِ الْحَقِيقَةِ!  
الْعِيمُ حَنَاقٌ، وَالرَّيْبُ حَنَاقٌ،  
وَالْخَضِرُ حَنَاقٌ، وَجَوَابِلُ حَنَاقِ،  
وَالْأَوْرَاقُ الَّتِي تَحْفَظُ آيَاتِكَ أُنْجَحَةٌ..  
فَلْتَفْتَحْ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ،  
وَلِتَنْفَرِجَ طَبَقَاتُ الْأَسْنَانِ، سَتْرًا فَسْتَرًا،  
وَلِتَنْتَرِجْ النُّجُومَ فَوْقَ الصَّحَارَى نَتْرًا،  
وَلِتَصْطَفِ فِي دُرُوبِكَ صَفًّا صَفًّا..  
الْأَيْتَامُ وَالْأَبْرِيَاءُ مِنَ الذَّنُوبِ،  
وَلِتَغْزَلْ رَيْتَاكِ الْبَنَاتِ،  
- اللَّائِي يُشِيدْنَ أَعَانِي حَزَنٍ كَلَمَاتُهَا لَيْلَالِي الصَّحْرَاءِ -  
بِخِيوطِ شَعْرهن.

وَلِيُؤَدِّنَ «دَاوُدُ».. إِنْ كَانَ قَدْ سَكَتَ «بِلَالُ»  
فَلْتَحْطُ الْحِمَامُ عَلَى شُرَفَاتِ الشَّيَابِكِ مِنْ جَدِيدٍ،  
وَلِتَحْطُ نَدَاءَاتُ الذِّكْرِ: هُوَ .. هُوَ، بِدَعَاءِ «آمِينَ»  
إِنَّمَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، فَهَلُمُوا يَا «فَوَاتِحُ»، وَيَا «يَوَاسِينَ»..  
أَقْبِلْ، يَا مُحَمَّدُ، بِالْإِلْفِ وَالْخَيْرِ وَالطُّيُوبِ؛  
عَلَى أُنْبَاءِ آدَمَ،



(\*) مِنْ كِتَابِ شَعْرَاءِ وَأَدْبَاءِ تَرْكِيا، تَوَلَّى سَنَةَ ١٩٧٥. التَّرْجُمَةُ عَنِ التَّرْكِيَّةِ: عُرُونِ عَمْرِ  
لَطْفِي أَوَّلُغِي.

(١) الْمَقْصُودُ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ وَ يَسِ. (٢) الْمَقْصُودُ هُوَ الصَّحَابِيُّ سَلِيمَانَ الْفَارَسِيَّ عَلَيْهِ

# ماذا تعني بَشَرِيَّةُ الرسول؟

أ.د. محمد عمارة\*

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣)

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَخَذُوا﴾ (الكهف: ١١٠)

## حكمة تؤكد القرآن على بشرية الرسول ﷺ

ع عندما اصطفى الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله ﷺ نبياً ورسولاً، وعندما صدع محمد ﷺ بأمر ربه، فدعا الناس إلى التوحيد وإلى الإيمان به نبياً ورسولاً، لم تكن هناك شبهة على «بشرية» محمد بن عبد الله ﷺ.

فهو قد نشأ يتيماً في الفرع الهاشمي من قبيلة قريش بمكة، وهو قد شب الشباب الطيب المألوف من البشر المستقيمين، ثم هو قد رعى الغنم حيناً من الدهر ومارس التجارة حيناً آخر كما كان يصنع أقرانه من البشر العاديين، فليس في حياته هذه ما كان يثير أية شبهة حول «بشريته» أو يلقي عليها الشكوك أو اللطال.

ومع كل هذا فلقد وحدنا القرآن الكريم بتجهد آياته البينات لتؤكد على «بشرية» محمد ﷺ وتنتفي أن يكون إلا «بشراً رسولاً»، وبشراً يوحى إليه من السماء بالنبا العظيم. فلم كان هذا التأكيد والإلحاح على قضية لم تكن محل خلاف ولا شبهة ولا جدال؟

لإدراك السر الذي يجيب على هذا التساؤل لا بد من النظر إلى رسالة محمد بن عبد الله ﷺ في سياق ما تقدمها من رسائل تحض بها الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالبشر لمُدايبتهم إلى الصراط المستقيم؛ وأيضاً في ضوء كون الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة لطور النبوة والرسالة، بما يعنيه ذلك

من بلوغ الإنسانية مرحلة «الرشد» التي تأهلت بها، لأن توكل إلى «عقلها الراشد» ثمّدي به -كلما انحرفت أو ضلت- إلى حادة الرسالة الخاتمة، دونما حاجة إلى رسول حديد.

## طبيعة المعجزة القرآنية

ولقد كان هذا الطور الجديد الذي ارتقت إليه الإنسانية، طور «الرشد»، هو الذي حدّد الطابع الذي تميّزت به «معجزة» محمد ﷺ التي تحدّى بها قومه، فجاءت لذلك:

• معجزة عقلية -رغم أنها «نقل» و «وحي»- فهي لا تدهش العقل ولا تدهله، وإنما هي تنضجه وترشده، وتجعله مناط التكليف، وتتخذ حكماً وحاكماً في فقه مراميها واكتناه أسرار إعجازها، واستخراج البراهين والأحكام مما ضمت من السور والآيات.

• وهي -لهذا السبب- خالدة خلود الرسالة الخاتمة، لأن تأثيرها دائم الفعل والبرهنة. فهي ليست سفينة نوح (نوح عليه السلام)، أو ناقه صالح (صالح عليه السلام)، أو عصا موسى (موسى عليه السلام)، أو إبراء عيسى (عيسى عليه السلام) للأكمه والأبرص... إلى آخر المعجزات التي «أدهشت العقل»، والتي وقف «إدهاشها» هذا عند حدود «الشهود»!

• ولأنها كانت التعبير عن بلوغ الإنسانية طور «رشدها»، وعن اتساق «طبيعة إعجازها» مع هذا الطور الجديد، وحدانها تولي اهتمامها بكثير من القضايا التي تدعم من عوامل «رشد الإنسانية»، والتي تُزيل بقايا الشبهات والخرافات والمعتقدات الباقية من المراحل السابقة، عندما كانت الانسانية «خرفاً» ضالّة» تحتاج إلى «الوصاية الدائمة» من قبل الرسل والأنبياء،

وعلى هذا الدرب، درب استنكار «حدارة البشر بالرسالة»، سار «أصحاب الأيكة / أهل مدين» عندما بعث الله إليهم «شعياً» ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٧٨). لكنهم كذبوه مستكبرين حدارته كبشرو بالرسالة: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٥-١٨٦). ثم طلبوا منه كما طلبت «عاد» من «صالح» - الآية - المعجزة» التي «تدهش العقل وتذهله»: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٧).

ولقد تحدث المسيح عيسى بن مريم ﷺ عن حال بني إسرائيل عندما أرسله الله إليهم، فقال عنهم: إلهم خراف ضالة. ولقد جاءهم عيسى ﷺ بالمعجزات التي «تدهش العقول» من مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص... فلم يؤمنوا به، بل إن الحواريين الذين آمنوا به قد طلبوا هم الآخرين من عيسى «الآية- المعجزة» التي «تدهش العقول»: ﴿إِذْ قَالَ الْحَارَاثِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَأَلَا تَرِيدُونَ أَن تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَظْمِئْنَ قُلُوبَكُمْ وَتَعْلَمْنَ أَن قَدْ صَدَّقْنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ١١٢-١١٣).

ولذلك فعلى الرغم من أن دعوة عيسى ﷺ كانت: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، إلا أن قوماً قد ضلوا فيه، فاستعظموا أن تظهر هذه «الآيات- المعجزات» التي «تدهش العقل» على يد بشر، فاتخذوه وأمه لجن من دون الله. تلك كانت مسيرة الإنسانية مع رسالات السماء...

فتعبيراً عن قصور هذه الإنسانية في «الرشد العقلاي»، كان استنكار الأكثرية «حدارة البشر» بالنبوة والرسالة والنزوع إلى أن تكون «معجزة» الرسول مما «يدهش العقل» ولا يحتكم إليه. ولهذا رأينا القرآن الكريم -وهو المعجزة العقلية الخالدة- للرسالة الخالدة- يلج مع بقايا هذه الفكرية الجاهلية على بشرة محمد بن عبد الله ﷺ، ليعلم ويؤكد:

ولا تومن إلا إذا «اندھش عقلها». وهي مراحل كانت «عقول» الأكثرية فيها تأتي أن تصدق اتصال السماء بالأرض عن طريق «بشر»، فكانت تسرع إلى «رسل - ملائكة» نزوتها إلى المعجزات «المدهشة للعقول».

فالذين كذبوا نوحا ﷺ قد أنكروا واستنكروا «حدارة البشر أن يكون رسولا»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فَقَالَ الصَّالِحُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٢-٢٤). وكذلك صنع قوم «عاد» مع رسولهم هود ﷺ: ﴿وَقَالَ الصَّالِحُ مِنْ قَوْمِهِ لِمَنْ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةُ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ وَلَقَدْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣-٢٤). أما «هود» الذين أرسل الله إليهم صالحاً ﷺ، فإهم مع إنكارهم «حدارة البشر بالرسالة»، قد طلبوا «الآية- المعجزة» التي «تدهش العقول»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٤١-١٤٢). لكنهم كذبوه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٣-١٥٤).

فلما جاءهم «الآية- المعجزة» «المدهشة للعقل» (وهي الناقة) استمروا على تكذيبهم وكفرهم، استنكروا منهم أن يكون بشرا رسولا: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَا لَنِي ضَالِّينَ وَسُغِرَ﴾ (النمل: ٢٤).



صندل خشبي تقليدي



• حدارة البشر بالاصطفاء الإلهي نبيا ورسولاً،

• واستحالة أن يكون النبي والرسول إلا بشراً يوحي إليه،

• وانتهاء الطور الساذج من المسيرة التطورية للإنسان، والذي كانت تناسبه «الآيات-المعجزات» التي «تدهش العقل». فلقد أحلى هذا الطور المكان لطور بلغت فيه الإنسانية «رشدها». وإذا كان الإسلام هو الرسالة الحاققة، وما ارتفعت الوصاية عن الإنسان، فلا بد وأن يلعب «العقل» دوراً قائداً في «رشد» هذا الإنسان وفي «إرشاده»؛ ومن ثم فإن «طبيعة الإعجاز» في معجزة سيدنا محمد ﷺ لا بد وأن تختلف عن طبيعتها في معجزات الرسل السابقين، إما لن «تدهش العقل»، بل ستتحده حكماً وحاكماً.

### طور الرشد والرسالة الحاققة

نعم، لقد وقف هذا السبب خلف إلحاح القرآن الكريم على «بشرية» محمد بن عبد الله ﷺ رغم أن هذه «البشرية» لم تكن موضع خلاف ولا موطن شبهات.

فمن العرب من ردد مقولة الأمم السابقة: «وَأَسْرَوْا النَّجْرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» (الأنبياء: ٣)، بل وطلبوا ما طلبته تلك الأمم: «فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» (الأنبياء: ٥). وأمام هذا «المنطق الجاهلي» الذي وقف بأصحابه عند «جاهلية الإنسانية» نالت آيات القرآن تكشف زيف هذا «المنطق»؛ فالتكذيب والعباد والجحود هو سبب الكفر، وليس الافتقار إلى «الآية-المعجزة» «المدهشة للعقل»، وذلك بدليل أن جميع معجزات الرسل السابقين على هذا النحو لم تحوّل قريش من الكفر إلى الإيمان: «مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ» (الأنبياء: ٦). كما أن الرسل كانوا دائماً، بشراً يأتيهم وحى السماء: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ» (الأنبياء: ٧-٨)، وبلوغ الإنسانية «طور الرشد» قد أذن بختام «طور النبوة والرسالة»، الأمر الذي أفسح «للعقل الإنساني» مكاناً عالياً في «ترشيد» الإنسان و«هدايته». ولذلك كله اختلفت «طبيعة الإعجاز» في معجزة محمد عليه الصلاة والسلام: «قُلْ لَنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالنَّحْسُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ آخِرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً» وَقَالُوا لَنْ

نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا \* أَوْ تَكُونَ لَكَ حِجَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَبَّ قَفْجَرُ الْأَنْهَارِ حِلَالَهَا تَفْجِيرًا \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْثَا \* أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا \* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفْعِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرُؤُهُ قُلُوبُ شَحَابٍ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء: ٨٨-٩٣)، «قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» (الإسراء: ٩٥).

ولقد كان القرآن الكريم، بهذا المنطق، يقطع الطريق على كل المحاولات التي يمكن أن تظهر من ضعاف العقول، وضعاف الإيمان «بالعقل»، لتشكك في «بشرية» الرسول عليه الصلاة والسلام: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (الكهف: ١١٠). فهذا التأكيد على «بشرية» الرسول، وثيق الصلة بالتأكيد على ضرورة أن تبقى عقيدة «التوحيد» في التصور الإسلامي متحفظة بقائها الشديدة.

وفي هذا الضوء وجب ويجب على العقل المسلم أن ينظر إلى كل القصص والأخبار التي نسبت وتنسب إلى الرسول ﷺ، الخوارق للمادة المدهشة للعقول، والتي هي من جنس معجزات الرسل الذين سبقت رسالاهم رسالة الإسلام، عندما لم تكن البشرية قد بلغت سن الرشد الذي أذن به رسالة الإسلام.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول، محمداً أَمَنَهُ مِنْ اسْتِعَارَةِ سِنَاجَةِ الْأُمَمِ الَّتِي سَبَقَتْ، والسير على هجها في الانحراف عن «الرقى والبساطة» اللذين تميزت بهما عقائد الإسلام: «لننتبع سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِرْراً وَبَشِيراً وَذُرْعاً وَبَذْرَاعَ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ صَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»؟! (رواه البخاري ومسلم).

إن «بشرية الرسول» التي تؤكد «معجزته-القرآن» ليست مجرد «تحصيل حاصل»، وإنما هي «ثورة» على التصورات الجاهلية للأمم السابقة، عن «طبيعة الرسل» و «طبيعة المعجزات». كانت كذلك عندما تحدث عنها القرآن الكريم، وهي لا تزال كذلك، «ثورة» على «التصورات» التي طرأت على أفكار وموارث بعض التيارات الإسلامية التي استنامت للقصص الخرافية ولم تتخذ من العقلانية الإسلامية

موقفاً ودياً. ٤

(ه) كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

«أردتُ أن أعرف صفات ذلك الرجل [ﷺ] الذي ملَّك بدون نزاع قلوب ملايين البشر... لقد أصبحت مقتنعا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقته في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهّدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف.»

مهاتما غاندي / محرر الهند

كتاب الرسول ﷺ إلى المؤمنين عظيم العطاء / متحف طرب فاني - إسطنبول



# التسامح في الإسلام

إ.د. محمود حمدي زقزوق \*

الناس جميعاً خلفاء في الأرض التي نعيش فوقها، وجعلهم شركاء في المسؤولية عنها، ومسؤولين عن عمارتها مادياً ومعنوياً كما يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (مرد: ٦٢). أي طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها. ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل وسلحه بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسؤولياته في هذه الحياة. ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنساني الذي يعدّ أجلّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان. ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل؛ وفي الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حرّيته التي منحها الله له والتي هي شرط ضروري لتحمل المسؤولية. فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التي تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسؤول. فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حرّيته وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسؤولة للحرية أن تجعل المرء على

الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنبئ عن الظلم وترسي دعائم السلام في الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم. فالجميع ينحدرون من «نفس واحدة»، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١).

وعالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالَت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات. فقد جعل الله



وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً؛ لأن لهم نفس الحق الذي يطلبه الإنسان لنفسه. وهذا يعني أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هي علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع. وهذا يعني بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفرادده، بمعنى أن يجب كل فرد فيه للآخرين ما يجب لنفسه.

### التسامح الإيجابي الشامل

ولا شك في أن وعينا بأننا خطّآؤون<sup>(١)</sup> يواكب في الوقت ذاته وعينا بمسئوليتنا التي ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذي يمكننا من السلوك القويم للتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية، والذين ينبغي أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنساني المشترك. والتسامح - كما ألتحنا - يقوم على الاعتراف بحرية وكرامة كل إنسان. ونحن مطالبون أخلاقياً ودينياً أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والأيدولوجية.

ولا يكفي الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضاً الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل بالآخر فحسب، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضرية. وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابي وليس تسامحاً حيادياً. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحة: ٨).

ومن الملاحظ في هذه الآية وفي آيات أخرى كثيرة أن القرآن لم يستخدم الأمر بطريق مباشر، وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذي يتطلب استخدام العقل الإنساني. ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد. والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاماً ليحفظوه

ويعملوا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذي يؤدي عن اقتناع.

ويشتمل النص القرآني الذي أوردناه على ثلاثة أمور؛ أولها: أن الله سبحانه وتعالى لم ينه عن التسامح مع الآخرين. وثانيها: أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالر والقسط هو العدل بعينه. وثالثها: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله سبحانه وتعالى.

وهذا الأسلوب الممتع الذي يخلو من الإكراه على فعل شيء ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية - رسالة التسامح - إلى النفوس في يسر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

### التسامح والعديدية

ومن هنا لا يجوز أن يُنظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعرافها وألوها ومعتقداتها ولغاها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب. فقد خلق الله الناس مختلفين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ (هود: ١١٨-١١٩)، كما يقول القرآن الكريم.

ولكن هذا الاختلاف بين الناس في أجناسهم ولعاقهم وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنسراع والشقاق بين الأمم والشعوب، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يضيئون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعاش وإثراء للحياة والنهوض بها. ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع المجالات.

### التسامح والحوار

إن الحوار في معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدي إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر. وهذا المعنى فإن الحوار يعني التسامح واحترام حرية الآخرين، واحترام الرأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به. وليس الهدف من الحوار مجرد فلت الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تعييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما هدفه الأكبر هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس، وممهيد الطريق للتعاون المشترك فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم



### التسامح الديني

ونظراً لما للدين من عمق عميق في النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحل محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً حواريّاً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديان السماوية جميعها تُعد في نظر الإسلام حلقات متصلة لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنساني. ومن هنا فإن من أصول الإيمان في الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود. فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يُكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام. فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذي أكدّه القرآن الكريم في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وفي قوله في موضع آخر: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (النكهة: ٢٩).

ومن القواعد الأساسية المعروفة في الشريعة الإسلامية في شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة: «ضم ما لنا وعليهم ما علينا»، أي لهم ما لنا من حقوق، وعليهم ما علينا من واجبات.

المشتركة التي تشكل الأساس المثين للتعاون البناء بين الأمم والشعوب. والحوار بهذا المعنى يُعد قيمة حضارية ينبعِي الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات.

والوعي بذلك كله أمر ضروري يجب أن نعلمه للأجيال الجديدة، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين. ولا جدال في أن الحوار قد أصبح في عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة.

وإذا كانت بعض الدول في القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضاري في التعامل وهو الحوار. فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف<sup>(١)</sup> بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان - على الرغم من الاختلافات فيما بينها - كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان. وذلك لما للأديان من تأثير عميق في النفوس. ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ولم يكف القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذي ينبعِي اتباعه في مثل هذا الحوار. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (المعكوت: ٤٦).

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية، فيجدر بنا أن نتركه لله حل شأنه؛ وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد في أن نسلك حيالهم مسلكاً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يغل إلا بالأعمال التي نتحمل نحن مسئوليتها؛ ولهذا يقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَأَمَرْتُ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ اللَّهُ رَبَّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْيَانُ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).



#### خاتمة

الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتي تعد نموذجاً رائعاً على التسامح الإسلامي الإيجابي. فقد كان عمر رضي الله عنه يتجول كعادته في شوارع المدينة المنورة يتفقد أحوال الرعية، فرأى شيخاً طاعناً في السن يتسول في الطريق، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودي. فحزن الخليفة لما أصاب هذا الشيخ المهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يُخصَّص له ولنظرته معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمة. وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة: «من استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

ومن هذه الأمثلة -وغيرها كثير- يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته العرقية أو الدينية أو الثقافية. وذلك كله يعبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامي الذي سيظل عنواناً على هذا الدين إلى آخر الزمان. ❦

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أي مدى يعتبر التسامح الإيجابي -بوصفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً- من العناصر الأساسية في تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التي ترمي إليها التربية الإسلامية.

ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحميتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون في المجتمعات الإسلامية أمر يدخل في إطار التزامهم الدينية التي تقضي بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية العامة للجميع. وأي تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجاوزاً وعدواناً على تعاليم الدين، وهو أمر يجب على المسلمين التصدي له بكل الوسائل. وفي هذا الإطار يُفهم أيضاً حديث النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسلمه، فإن لم يستطع فليقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم). ومن هنا فإنه ليس من التسامح في شيء الوقوف موقف المتفرج حيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أي إنسان، بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته.

وفي الختام أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابتة عن الخليفة

(٥) وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - جمهورية مصر العربية.

(١) إشارة إلى الحديث النبوي: «كل بن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». (رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة).

(٢) كما جاء في الآية الكريمة: «وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا فِي أَعْيُنِنَا» (الحجرات: ١٣).

# جمالية التناظر



إبراهيم يوليقيان \*

في المقاييس فيما  
بين أجزائه،  
والذي يُعرّف

بـ «سيمترية» الجمال؛ إذ إن الموجودات قد خلقت بإبداع  
رائع وفي خصوصيات التناظر والتماثل المتعدد جداً.

إن أشهر هذه الأنواع السيمترية أي التناظرية هو تماثل  
«المراة» اليمين والشمال. إن كل جسم يشكّل تناظراً وتماثلاً  
كاملاً مع طيفه المنعكس على المراة. إن التماثل والتناظر الذي  
لا يختلف عن ذلك قط، هو التماثل الموجود في بدن الإنسان.  
إن طيف أو خيال جنتي اليمين واليسار في أحسانها هو تماثل  
وتطابق فيما بينهما. وفقاً للخبط الذي يتم رسمه في الوسط  
تماماً لتقسيم البدن إلى قسمين من الجبهة والأنف والفك  
والصدر، فإن هذا يُعتبر تناظراً بين جزئين. ولو أخذنا جزءاً  
من هذين الجزئين، وأسدنا على المراة من نفس المكان الذي  
تم القطع فيه، فلسوف ينتج خيال أو طيف جسد متطابق  
تماماً مع الطيف أو الخيال المنعكس على المراة. والسبب لكي  
يكون الأمر كذلك هو أن الأذرع والسِّقان والعُيُن والأذنين  
والأنف والشفاه وما شابه ذلك من كل الأعضاء قد تم خلقها  
متناظرة وفقاً للخبط الذي تحدثنا عنه. نفس هذا التكوين والبناء  
المتناسق موجود أيضاً في الغالبية العظمى من ذوات الروح.  
فكل الثدييات والزواحف والطيور قد تم خلقها في هذا البناء  
للتناظر والتماثل.

يا ترى هل فكّرنا قط في هذا السؤال التالي؟ «عند النظر  
في المراة لماذا نرى جانبنا الأيمن يساراً وجانبنا الأيسر يميناً،  
ولا نرى الجزء الأسفل علوياً والجزء الأعلى في الأسفل؟»  
سؤال منطقي لأنه بالنسبة للمراة لا فرق في العلاقة بين اليمين  
والشمال أو بين الأعلى والأسفل. سبب ذلك لا بد وأن يكون  
متعلقاً بجسمنا نحن. فكّر لو أن بجانبك فرداً يرقد على جانبه  
الأيمن ووجهه عكسي للمراة، فلسوف تراه على المراة كفرد  
يرقد فوق جانبه الأيمن.

خلال زيارة «باول ديراك» الفيزيائي الشهير وأحد  
مؤسسي ميكانيكا الكوانتوم لجامعة موسكو، طُلب منه  
أن يكتُب بعض الكلمات في دفتر الشرف للجامعة لكي تُسجَل  
وتُنقل إلى الأجيال القادمة. ولما كان «ديراك» يعلم أن هذا  
العرض لا يُقدّم إلا لكبار العلماء، شعر بضرورة التفكير بعض  
الوقت، لأن الشيء الذي سوف يكتبه -لما كان سيتم نقله إلى  
الأجيال القادمة- يجب أن يحمل معاني كثيرة من ناحية، ومن  
ناحية أخرى يجب أن يُحافظ على ديمومته ورواجه وسريانه  
بين كل الأجيال. فكتب «ديراك» الذي أمسك بالقلم بين  
أنامله هذه الرسالة الموحزة: «لا يخلو قانون فيزيائي من جمال  
رياضي». في الواقع، كان «ديراك» يعلم أن كل المخلوقات  
تملك حسابات رياضية قوية وكان يبين ذلك بوضوح. وعند  
النظر إلى هذه الرسالة الموحزة من هذه الزاوية، فلسوف تُدرك  
جيداً ما يُريد أن يقوله.

فكما أن الخواص الطبيعية والكيميائية للموجودات جميعها  
تابعة لقوانين رياضية، فإن سطوحها الظاهرة أيضاً مرتبطة تماماً  
بالمبادئ الحسابية. وعند نظرنّا للوجود بهذه العين؛ فلننا سنصل  
بالضرورة إلى الجمال الأخاذ البادي في وجهه ومظهره جنباً إلى  
جنب مع التكامل الكامن في بنائه وتكوينه. هذا الجمال البادي  
والظاهر في المظهر الخارجي للموجودات التي خلقت كتجَلٍّ  
لأسماء الله «المصور» و«الصانع» و«الباري» و«الحَمِيل» هو  
مرتبط بوجود أكثر من عنصر مُتّحد معاً في نفس اللحظة. إن  
أهم عنصر من بين هذه العناصر هو الجمال المتناغم والمتناسق





الروح يمكن رؤيته بالعين المجردة، وأنه ظاهر للعيان في المظهر الخارجي أكثر من الأعضاء الداخلية للأحياء. فمثلاً لا يوجد تناظر أو تماثل في الأعضاء الداخلية في جسم الإنسان مثل الرئة والكبد والمعدة والأمعاء، كما لا يوجد قلب في الجانب الأيمن للجسم مثلما هو موجود في الجانب الأيسر. بالإضافة إلى ذلك، فإن أنصاف الكرة في المخ ليست متناظرة أو متماثلة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الفعاليات المتصلة ببناء الزوتوبلازما اللازمة لتأمين الطاقة الضرورية للأعمال والأنشطة الحيوية والتي يُستعاض بها عن المندثر منها، هذه الأنشطة تنظم على أكمل وجه. ترى هل هذا الجمال الحسابي الموجود في المظهر الخارجي لذوات الروح قد منح من أجل علم الجمال فقط؟ إن الله ﻋَﻠَﻤَ ﺍﻟْﺠَﻤَﺎﻝَ لم يخلق الكائنات بمقصود واحد أو غاية واحدة، بل خلقها ضمن علاقات وظائفة وحكم متعددة جداً. فلو لم تخلق أعيننا مُزوَّجة ومتناظرة وتوضع في أماكنها في شكل متماثل، لما رأينا الأشياء والأجسام بأبعادها الثلاثة، بمعنى أننا لن نرى بعمق. ونفس المنطق لو لم تخلق أذاننا بشكل متناظر ومتماثل، لأصبح من الصعب علينا تحديد اتجاه الأصوات وأبعادها؛ ولو لم تكن أهداننا مُتماثلة، لما استطعنا السير بشكل متوازن؛ ولو لم تكن أذرعنا متماثلة لما استطعنا أن نحمل مركز الثقل لأبداننا عند السيرة؛ ولو لم تكن أجنحة الطيور متماثلة، لما استطاعت الطيران؛ ولو لم تكن رِغَاف الأحماء متماثلة، لما استطاعت أن تعوم بشكل متوازن... كل هذا يُظهر ويبيّن أن في التماثل والتناظر الذي أودعه الله في المخلوقات يكمن جمال باهر وحكم كثيرة لا نعد ولا نحصى. ٤

(٥) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أد. الصفصافي أحد الفطوري.

#### المصادر:

- (١) I. Stewart & M. Golubitsky, Fearful Symmetry, Blackwell 1992.
- (٢) J. Rosen, Symmetry Discovered, Cambridge University, Pres 1972.
- (٣) This Amazingly Symmetrical World.

في هذا الوضع؛ المرأة لم تُغيّر هي جانبي اليمين واليسار للشخص الراقد. بل الذي أصبح متغيراً هو طرفاه العلوي والسفلي. سبب ذلك؛ هو وجود تناسق اليسار واليمين لأبداننا. فلو لم يكن تناظر في جسدنا فإن طيفنا المنعكس على المرأة لن يشبهنا.

أما الشرع الآخر من التناظر والتماثل؛ فلنفكر في لوحة معدنية على شكل مثلث متساوي الأضلاع قد تم تثبيتها فوق الرمال. هذه اللوحة، لو أننا أدرناها حول المحور الذي يمر من مركزها  $١٢٠$  درجة؛ فإن الوضع الجديد للمثلث سوف يتطابق تماماً مع الأثر الذي تركه الوضع القديم لهذه اللوحة فوق الرمال. وسبب ذلك؛ هو وجود تناظر وتماثل في الدوران البالغ  $١٢٠$  درجة في المثلث المتساوي الأضلاع. ونفس الشكل في المربع الذي تبلغ زواياه  $٩٠$  درجة، أما في المصّلع المنتظم (الذي زواياه بعدد  $n$ ) فيوجد به تناسق وتناظر بدوران  $٣٦٠/n$  درجة.

إن تناظر وتماثل كرسنالات أي بلورات الثلج السداسية تُعدّ واحدة من أهم الأظواهر التي تلفت أنظار بني البشر.

كما أن هناك أيضاً أشكالاً تمتلك سيمترية الدوران الثلاثي الأبعاد. أهم هذه الأشكال؛ هي تلك الأشكال المسطحة المتعددة السطوح والأوجه والتي تُعرف على أنها خمسة أشكال منذ عصر أفلاطون. وكمثال لهذه الأشكال المتعددة الأسطح، تقدم كرسنالات الملح التي تأخذ شكل مكعب. فحتى زمن قريب، لم يكن يُعرف إن كان في الكائنات موجودات ذات عشرين سطوحاً متناسقاً أو لا، ولكن بتثبيت وتحديد الغدد الفيروسية (Adenovirus) التي تفتح الطريق أمام الإلتان أي السلوث المكروبي ومرض الكبد لدى الكلاب؛ قد ثبت واتضح أن هناك بالفعل مخلوقات ذات عشرين وجهاً متناسقاً ومتناظراً. ولكن أهمل مثال للتناظر والتناظم في عالم التورمو (Normo) نراه في الزهور المشابهة لزهرة الأفيون.

إن الأبنية المتناظرة ليست في عالم الذرات والجزيئات أو عالم الإنسان فقط بل يمكن رؤيتها أيضاً في عالم الكون الشائع. إننا لو استطعنا أن نقوم بتصغير هذه الأحجام العظيمة التي نراها في أعماق السماء ونضعها أمام أعيننا، لاستطعنا أن نشاهد تناظرات وتناسقات متعددة ومختلفة، حتى ذلك التماثل الخلوي والفصل للمجموعات النجمية والتولد عن حركاتها المتناسقة والمتناغمة للكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

والميزة الملفتة للنظر أيضاً هي أن التناظر الموجود في ذوات





## القصيدَةُ الحُجْريَّة:

# أشواق عشقية في حضرة سيّد الإنسانية

أ.د. سعدي جونغلي - سلامي باقريجي \*

بيد هؤلاء الظلمة، يا رب! يا من يجب المضطر إذا ظلم، يا كاشف الضر والبلى، إلى أرفع أكفّ الضراعة إليك لكي تردّ قلعة «أوزي» إلى أصحابها للمسلمين».

كان السلطان عبد الحميد الأول معروفًا بحبه الشديد لرسول الله ﷺ ولأهل بيته الأطهار، ومن ثم لم يأل جهدًا في تقديم كافة الخدمات اللازمة للحرمين الشريفين؛ وهو الأمر الذي دأب عليه السلاطين العثمانيون منذ القدم؛ حيث أرسلوا الهدايا الثمينة إلى أهالي الديار المباركة، وخصصوا لها الأوقاف، وعملوا على إصلاح طرقها ومرافقها، وجهّزوا المحامل الشريفة محملة بأغلى التّخفّ وأجمل الهدايا.

ومن المعروف عنهم أيضًا أنهم نظّموا قصائد وأشعارًا عبّروا فيها عن حبهم للرسول ﷺ وأشواقهم إلى الأراضي المقدسة. وقد كان السلطان عبد الحميد الأول أحد السلاطين الذين يُجيدون قول الشعر باللغة العربية، حيث كان بارعًا في اللغة العربية ضليعًا في آداها؛ وآية ذلك قصيدته التي اشتهرت بـ«القصيدَة الحجرية»، والتي نظمها على وزن البحر البسيط وأهداها إلى صاحب «الروضة المطهّرة» عليه وعلى آله أفضل الصلوات والتسليم. وقد سميت بـ«القصيدَة الحُجْريَّة» لأنها كُتبت على الجدار القلبي من حجرة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد لقيت القصيدة قبولًا واسعًا لدى العاشقين فأدرجوها في كتب أوردتهم وأذكّارهم مثل كتاب «مجموعه الأحزاب» للشيخ ضياء الدين الكومشخانوي. يبدأ السلطان المُنثَمّ قصيدته بعبارة شجية تعبر عن طيب الحب المتأجج في أعماقه حيث يقول: «يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي/إملي سواك ولا ألوي إلى أحد».

وفيما يلي النص الكامل للقصيدَة الحُجْريَّة التي علّمنا أنها لا تزال على جذران الروضة النبوية حتّى اليوم:

(٥) كلية الآداب - جامعة أتاتورك - تركيا. الترجمة عن فكرية: نور الدين صولش.

**١** السلطان عبد الحميد الأول هو السلطان السابع والعشرون بين السلاطين العثمانيين. ولد في ٢٠ آذار / مارس ١٧٢٥، وهو نجل السلطان أحمد الثالث، أما والدته فهي السلطانة شرمي خاتم. تتلمذ على أفضل علماء عصره وهي منهم العلوم الشرعية والأدبية والإنسانية منذ الطفولة، وقد كان غاية في الذكاء والفطنة.

جلس على كرسي الخلافة بعد وفاة شقيقه السلطان مصطفى الثالث في ٢١ كانون الثاني / يناير ١٧٧٤، وكان عمره آنذاك تسعا وأربعين سنة. اهتم أثناء حكمه بإصلاح الشأن الداخلي للدولة، كما وقف في وجه هجمات جحافل الروس القادمة من شمال البلاد. فعندما تولى إدارة البلاد كانت الدولة في أزمة اقتصادية شديدة بسبب الحرب الضروس ضد روسيا. وتوالى الغارات الروسية وظلّت جيوشها تتقدم حتّى استولت على قلعة «أوزي» الواقعة في الأراضي البولندية اليوم، وقلعة «هوتين» الواقعة ضمن الأراضي الروسية اليوم، وكانتا قاعدتين إستراتيجيتين في هذه الحرب، حتّى وصلت إلى شواطئ الضفة العليا من البحر الأسود، فارتكبت مجازر دامية ضد أهالي «قيرم» المسلمين دون التمييز بين مدنيين أو محاربين. ولما بلغت الأنباء المولّقة السلطان عبد الحميد حزن حزنا شديدا وتأثّر تأثرا بالغا أدّى إلى إصابته بنشل في بدّنه، ومن ثم إلى وفاته في ٧ نيسان / أبريل من عام ١٧٨٩. ودفن جثمانه في مقبرة «باغچه قالي» بمنطقة «أمين أونو» من إسطنبول. وكان رحمه الله تقيا ورعا رؤوفا برعته.

وقد أعرب السلطان عبد الحميد الأول في يومياته عن مرارة الألم الذي شعر به عقب سقوط قلعتي «هوتين» و«أوزي» بيد الروس والمجازر التي ارتكبوها ضد المدنيين الأبرياء في «قيرم» قائلا: «أحسست بمُصّة مريّة وحزن شديد عندما علمت بسقوط قلعة «أوزي». وما من ألم أشد وطأة على قلبي من تصوري للمسلمين رجالا ونساء، صغارا وكبارا وهم أسرى

## القصيدة الحجرية

يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي  
فَأَنْتَ نُورُ الْهُدَى فِي كُلِّ كَائِنَةٍ  
وَأَنْتَ حَقًّا غِيَاثُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ  
يَا مَنْ يَقُومُ مَقَامَ الْحَمْدِ مُتَقَرِّدًا  
يَا مَنْ تَفَجَّرَتِ الْأَنْهَارُ نَابِعَةً  
إِنِّي إِذَا مَسَّنِي ضَمِي مُرَوِّعُنِي  
كُنْ لِي شَفِيعًا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ ذَلَمِي  
وَانْظُرْ بَعَيْنَ الرَّضَا لِي دَائِمًا أَبَدًا  
وَاعْطِفْ عَلَيَّ بِعَفْوِ مِنْكَ يَسْمَانِي  
إِنِّي تَوَسَّلْتُ بِالْمُخْتَارِ أَشْرَفِ مَنْ  
رَبُّ الْجَمَالِ تَعَالَى اللَّهُ خَالِقُهُ  
خَيْرُ الْخَلَائِقِ أَعْلَى الْمُرْسَلِينَ ذُرَى  
بِهِ الْفَجَأَتْ لَعَلَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِي  
فَمَدَحُهُ لَمْ يَزَلْ ذَائِبِي مَدَى عُمْرِي  
عَلَيْهِ أَزْكَى صَلَاةٍ لَمْ تَزَلْ أَبَدًا  
وَالْأَلِ وَالصَّحْبِ أَهْلِ الْمَجْدِ قَاطِبَةً

مَا لِي سِوَاكَ وَلَا أَلْوِي إِلَى أَحَدٍ  
وَأَنْتَ سِرُّ الدُّنَى يَا خَيْرَ مُعْتَمِدِي  
وَأَنْتَ هَادِي الْمَوْرَى لِلَّهِ ذِي السُّدُودِ  
لِلْوَاحِدِ الْقَرْدِ لَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَلِدْ  
مِنْ إِصْبَعِيهِ فَارْزُقِي الْجَيْشَ بِالْمَدَدِ  
أَقُولُ: يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ يَا سَيِّدِي  
وَأَمْنُنْ عَلَيَّ بِمَا لَا كَانَ فِي عِلْدِي  
وَأَسْتَرْ بِطَوْلِكَ تَقْصِيرِي مَدَى الْأَبَدِ  
فَإِنِّي عَنْكَ يَا مَوْلَايَ لَمْ أَحِدِ  
رَفَى السَّمَاوَاتِ سِرُّ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ  
فَمَثَلُهُ فِي جَمِيعِ الْخَلْقِ لَمْ أَحِدِ  
دُخِرَ الْأَنَامُ وَهَادِيهِمْ إِلَى الرَّشَدِ  
هَذَا الَّذِي هُوَ فِي ظَنِّي وَمُعْتَقِدِي  
وَحُجَّةُ عِنْدَ رَبِّ الْعَرْشِ مُسْتَقْدِي  
مَعَ السَّلَامِ بِلَا حَصَرٍ وَلَا عَدَدِ  
بَحْرِ السَّمَاحِ وَأَهْلِ الْجُودِ وَالْمَدَدِ



«لا يمكن استيعاب شخصية محمد ﷺ بكل جوانبها. فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ التيامي، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي... كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلاً.»

البروفسور رما كريشنا، عن كتابه «محمد النبي»



## في علو شأنه ورفعة منزلته

أ.د. علي جمعة\*

الرحمة المهداة للبشرية

الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (المائدة: ١٥)

### ذكر أعضائه الشريفة في القرآن

ومن أجل الصور التي ميز الله ﷺ نبيه الكريم ﷺ، ذكره له في قرآنه بأغلب أعضائه الشريفة ﷺ. فليس هناك ملك مقرب ولا نبي مرسل أنى الله على أعضائه وخصاله بهذا التفصيل قط.

فذكر ربنا وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)، ويشمل هذا السياق على مدح جليل فوق ذكر الوجه. ووجه المدح هنا أنه بمجرد تقلب وجهه الشريف أعطاه الله به ما أراد دون سؤال منه ولا كلام، فكانت بركة وجهه في تقلبه معطية له ما تمناه ومنيلة له ما يرضاه ﷺ.

وكان قد ذكر وجهه في مواضع أخرى فقال تعالى: ﴿قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، وقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤).

لنبي ﷺ عند ربه مقام عظيم وقدر جليل، فاق كل الخلائق أجمعين؛ فهو ﷺ سيد ولد آدم، بل هو سيد الأكوان وصفوها، وهو خير من الملائكة وخير من العرش، ولا يعرف حقيقته وعظيم قدره إلا خالقه ﷺ.

وقد حصّه ربنا بمزايا عديدة، وأثنى ربنا عليه ﷺ، فأكثر الثناء عليه، ونوع أشكال المدح له؛ فتارة بمدحه بجملاً وتارة بمدحه مدحاً مفصلاً، وذكره في قرآنه بأجل الصفات، بل لم يُباده ربنا قط باسمه مجرداً كما نادى الأنبياء قبله، بل كان دائماً يقول له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ﴾.

وقد أثنى ربنا عليه في كتابه بصفات شريفة، فوصفه ربنا بالرحمة فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٢٨). وكذلك وصفه ربنا سبحانه بأنه النور الهادي للحق فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﷺ (الأحزاب: ٤٥-٤٦). وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ



ولقد ذكر الله أنه ﷺ في أكثر من موضع كذلك، فقال تعالى في ذكر الأذن رداً على الكافرين: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦١).

وكذلك ذكر ربنا سمعه الشريف ﷺ في عدة مواضع من كتابه العزيز فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه: ١٠٨). وذكر ربنا ﷺ منطقة ومدحه سبحانه فقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (الجم: ٣)، فبين صدق منطقه ﷺ وصواب حديثه. وكذلك امتدح ربنا صوته بالإحلال والتعظيم، وحذر الصحابة من التعالي على هذا القدر فقال سبحانه: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: ٢).

وذكر سبحانه وتعالى لسانه الشريف ﷺ في أكثر من موضع في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْمُرُكُمْ بِلسَانِكَ لِنُثَبِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ (مرم: ٩٧)، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسْمُرُكُمْ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان: ٥٨)، وقال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَفْغَلُ بِهِ﴾ (القيامة: ١٦).

وذكر الله سبحانه وتعالى صدره الشريف ﷺ في كتابه العزيز كذلك في العديد من المواضع فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١)، وفيه إشارة إلى نعمة من نعم الله عليه، وفضيلته ﷺ بشرح صدره. وقال الله مُطْمَئِنِّ خبيبه المصطفى ﷺ: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَزَنٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢)، وكذلك ذكر صدره في تسليته له بقوله تعالى: ﴿وَصَاحِقًا فِيْ صَدْرِكَ أَنَّنِ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ حَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (مود: ١٢)،

(١٤٩)، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ (آل عمران: ٢٠). وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ (يونس: ١٠٥)، وقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ﴾ (الروم: ٤٣).

وكذلك ذكر الله عنيه ﷺ في أكثر من موضع في قرآنه، فقال سبحانه: ﴿لَا تَمْدَدْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ (الحجر: ٨٨)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (الكهف: ٢٨)، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْدَدْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ (طه: ١٣١).

وذكر ربنا رؤيته ﷺ في أكثر من موضع كذلك فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (الجم: ١٨)، وفي هذا ثناء على رؤيته ومدح بأنه رأى من الآيات ما لم يره أحد قبله ﷺ. وقال سبحانه للمشركين زاحراً لهم على تكذيبه ما يرى: ﴿أَفَتَسْمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (الجم: ١٢)، ثم أحم ربنا سبحانه وتعالى أن يبيه ﷺ حصص برؤية جبريل عليه السلام على صورته فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (الجم: ١٣).

كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى بصره الشريف ﷺ في أكثر من موضع من كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَمَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (الجم: ١٧)، وفي هذا السياق مدح فوق الذكر، إذ أثني ربنا على البصر وأنه صادق غير زائع. وقال سبحانه: ﴿فَتَنصُبْصُرُ وَيُصْضِرُونَ﴾ (القلم: ٥)، وقال حل وعلا: ﴿وَأَنْصُرُهُمْ فَسَوْفَ يُصْصِرُونَ﴾ (الصافات: ١٧٥)، وقال سبحانه: ﴿وَأَنْصُرْ فَسَوْفَ يُصْصِرُونَ﴾ (الصافات: ١٧٩).



### نسبه الشريف

وذكر الله صدره في سياق آخر ليُشبهه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر: ٩٧).

كذلك ذكر الله قلبه الشريف ﷺ في أكثر من موضع في كتابه العزيز، واشتمل الذكر النشاء عليه ﷺ فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفرع: ٩٧)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٤)، بل إن ربنا أنى على قلب نبيه ﷺ ناء عظيمًا عندما أثبت أن قلبه ﷺ أقوى من الجبال في تحمل التنزيلات الإلهية والوحي فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا عَلَى قَرْيَةٍ أَزَلَّ جَبَلٌ تَرَائِبَتَ حَاشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ حَشَوَةِ اللَّهِ وَتَلَكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)، وقد أنزله الله على قلبه ﷺ فتحمل ما لا يتحمل الجبل الأشم الراسخ.

وحصّ ربنا فواده ﷺ بالذكر في الكتاب العزيز بما اشتمل النشاء على فواده الشريف ﷺ فقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (الاحم: ١١)، وقال سبحانه مبشراً له: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئَتْ بِهِ فُؤَادُكَ﴾ (هود: ١٢٠)، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لَنُنَبِّئَنَّكَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

وقد ذكر الله يده الشريفة ﷺ في سياق الأمر بالتوسط بين التقدير والتبذير فقال ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ (الاسراء: ٢٩). كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى ظهر النبي ﷺ في سياق الامتنان عليه فقال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً﴾ (رواه الترمذي).

فهو سيدنا أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمة ﷺ السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب المذكور في نسبه ﷺ وهو الجلد الخامس له ﷺ.

نسب كان عليه من شمس الضحى

نورا ومن فلق الصباح عمودا

وقد ذكر الله يده الشريفة ﷺ في سياق الأمر بالتوسط بين التقدير والتبذير فقال ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ (الاسراء: ٢٩). كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى ظهر النبي ﷺ في سياق الامتنان عليه فقال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

(الشرح: ٣).

حاز المكارم والتقى والجودا

والاحتفال بمولده ﷺ هو الاحتفاء به، والاحتفاء به ﷺ أمر مقطوع ومشروعية، لأنه أصل الأصول ودعامتها الأولى؛ فقد علم الله ﷺ قدر نبيه، فعرف الوجود بأسره باسمه وبتبعته وبمقامه وبمكانته، فالكون كله في سرور دائم وفرح مطلق بنور الله وفرحه ونعمته على العالمين وحجته.

وقد درج سلفنا الصالح منذ القرن الرابع والخامس على الاحتفال بمولد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بإحياء ليلة المولد بشق أنواع القربات من إطعام الطعام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح في رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك غير واحد من المؤرخين مثل الحافظين ابن الجوزي وابن كثير، والحافظ ابن دحية الأندلسي، والحافظ ابن حجر، وخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى.

وألّف في استحباب الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف جماعة من العلماء والفقهاء بينوا بالأدلة الصحيحة استحباب هذا العمل؛ بحيث لا يبقَى لمن له عقل وفهم وفكر سليم إنكار ما سلكه سلفنا الصالح من الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، وقد أطلّ ابن الحاج في «المدخل» في ذكر المزايا المتعلقة بهذا الاحتفال، وذكر في ذلك كلاماً مفيداً يشرح صلور المؤمنين، مع العلم أن ابن الحاج وضع كتابه «المدخل» في ذم البدع المحدثّة التي لا يتناولها دليل شرعي.

وفي الختام لا أحد أفضل من قول البوصيري رحمه الله إذ يقول:

فهو الذي تم معناه وصورته

ثم اصطفاه حبیباً بارئاً للنسم  
منزلة عن شريك في محاسنه

فجهره الحسن فيه غير منقسم  
دع ما ادّعت النصارى في نبیه

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم  
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم  
فإن فضل رسول الله ليس له

حد فيعرب عنه ناطق بغير  
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ٢٤

(٥) مفتي الدبار المصرية.

كذلك أحلّ الله عُمر نبيه، ومدّة بقائه على الأرض، إذ أقسم بها في كتابه فقال ﷺ: ﴿اعْتَرِكْ لَهُمْ لَنِي سَكَرَتِهِمْ يَمْعُهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢). كما أحلّ ربنا سبحانه وتعالى البلد الذي يقيم فيه رسولنا الكريم ﷺ فقال سبحانه وتعالى في مدحه لبلد الحبيب ﷺ: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ جَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: ١-٢).

وأثنى ربنا ﷻ على نساءه ﷺ. وما بلغن هذا المبلغ إلا لتعلقهن بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ نِّسَاءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، وقال سبحانه في نفس هذا المعنى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

ونحن إنما نذكر ما ذكرناه تعبيراً منا على قدره الشريف في تلك المناسبة العظيمة، ألا وهي مناسبة مولده الشريف ﷺ.

### الاحتفال بالمولد الشريف

فلقد كان المولد النبوي الشريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة لتاريخ البشري جميعه، فلقد عبر القرآن الكريم عن وجود النبي ﷺ بأنه «رحمة للعالمين»، وهذه الرحمة لم تكن محدودة، فهي تشمل تربية البشر وتركيبتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم، وتقلعهم على صعيد حياتهم المادية والمعنوية، كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك الزمان بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لُمَأً يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ (الجمعة: ٣).

والاحتفال بذكرى مولد سيد الكونين وخاتم الأنبياء والمرسلين نبي الرحمة وغوث الأمة سيدنا محمد ﷺ من أفضل الأعمال وأعظم القربات، لأنها تعبير عن الفرح والحب للنبي ﷺ ومحبة النبي ﷺ أصل من أصول الإيمان، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (رواه البخاري).

قال ابن رجب: «محبة النبي ﷺ من أصول الإيمان، وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرأها الله بها، وتوعد من قدم عليهما محبة شيء من الأمور المحببة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (البقرة: ٢٤). ولما قال عمر لني ﷺ: أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال عمر: والله أنت الآن أحب إلي من نفسي، قال: «الآن يا عمر» (رواه البخاري).

# الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ

صلح الحديبية

وفتح مكة

نموذجاً



من اليوم السلطان عبد الحميد الثاني

أ.د. عبد الحليم عويس\*

عارباً، ومع ذلك فقد رفضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام، إلا أن الرسول ﷺ حافظ على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن.

لقد اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحديبية وأمر أصحابه بالتوقف، على الرغم من إيمانه بنفسه وشجاعة أصحابه. كان يعلم أنه لو التحا إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيتغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضل الانتظار. وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تباع مع أصحابه.. يتابع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام، هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سموات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَعَافَاةً كَثِيرَةً يَأْخُذُونََهَا وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا﴾ (التح: ١٨-١٩).

والحقيقة أن قريشاً التي كانت تظهر أنها تملك الكعبة اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ، إذ قالت للرسول ﷺ: «وانك ترجع عاملك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا

كان الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بأن قريشاً لن تغزوه في المدينة بعد الحندق. وقد كانت مشاعر المسلمين لا سيما المهاجرين قد تأججت نحو لزيارة مكة البلد الحرام، ووطن المهاجرين الذين طالت غربتهم واشتد حنينهم.

إنهم يعيشون منذ ست سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر... ولهذا كان الرسول ﷺ يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرح قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها وخابت كل جهودها وضاعت كل أحلامها وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة.

## صلح الحديبية

يروى ابن اسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه بالعمرة. ولهذا خرج الرسول ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القرب. وقد وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠ أو ٦٠ كم تقريباً. وقد عمد الرسول ﷺ إلى اتخاذ كل السبل ليُقنع أهل مكة بأنه جاء مُعتمراً، ولم يأت





عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ملك سلاح الراكب، السيف في القسرب لا تدخلها غيرها»، ومعنى هذا أن المسلمين شركاء في الكعبة أيضاً، وأنهم ديناً حنيفاً على ملة إبراهيم، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحديبية

حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائريهم الخاصة بهم.<sup>(١)</sup>

وبعد مفاوضات ظهرت فيها إسهامات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وفضب لها أصحاب النبي ﷺ، وتفاوضي عنها الرسول ﷺ بإثارة للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين. وسرعان ما تبين للمسلمين أن إثارة الرسول للسلام كان خيراً وبركة وفتحاً مبنياً.

لقد كان المفاوض من قبل قريش «سهيل بن عمرو» يعدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصراً كبيراً له، لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل؛ فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ عليّاً ﷺ ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)» فقال سهيل: «اكتب: باسمك اللهم» فكتبها، ثم قال ﷺ: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول ﷺ لعليّ ﷺ أن يحو كلمة «رسول الله» التي كان قد كتبها، وتردّد عليّ ﷺ، إذ صعب عليه حو كلمة «رسول الله» فقام النبي ﷺ بحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلّه على مكائفا عليّ ﷺ، وقال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحوا على وضع الحرب عن الناس

عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذنٍ وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّه عليه».

وقد قبل النبي ﷺ هذا الشرط الجائر لحكمة وأها على الرغم من تيرّم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ. وهكذا يرينا صلح الحديبية ملامساته وشروطه المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخول إلى القلوب والعقول. ومن المبدئي أن مناخ الحرب والقتال لا مكان فيه لفتح العقول والقلوب على الحق، ولا على الحوار الإيجابي. وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا الصلح على ما فيه من إجحاف فتحاً مبنياً، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: ١).

### فتح مكة

أما فتح مكة في الثالث والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فهو الآية العظمى على مدى الأخلاقية النبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول ﷺ مقدماً أرفع نموذج للتسامح والتواضع والسمو الذي عرفته البشرية عبر تاريخها.

إننا لا ينعيننا هنا رصد تطوّر الأحداث بعد الحديبية، فموضع ذلك هو الدرس التاريخي وكتب الحديث والسير، لكن الذي يعيننا هنا هو الوقوف عند الخلق الحربي الذي طبّقه النبي ﷺ الفاتح لبلده مكة، مع التذكير - في البداية - بكل ما عاناه الرسول من أهل مكة خلال أكثر من عشرين عاماً، منها ثلاثة عشر أمضاها هو وصحابته تحت مطرقة التعذيب والأذى والتشرد في الأرض بحثاً عن ملجأ آمن. وعندما هاجر لُوحق ورُصدت الأموال الطائلة لمن يغتاله، بعد أن فشلت مؤامرة قتله في داخل مكة... ثم - أخيراً - الأعوام الثمانية التي قضها الرسول في مكة، وهم يلاحقونه ويترصون بكل أصحابه، ولا تمرّ الأيام أو الأسابيع إلا وهم متآمرون عليه مع اليهود أو المنافقين، أو موعزون لبعض القبائل بتروييعه في المدينة والسطو على مساحم المسلمين التي تسرح فيها دواهم، أو مقاتلون له مباشرة طوراً ثلثاً.

وها هي السنوات الطوال قد مضت، وها هو أنبل الناس وأزكى الناس، الذي حارب واضطهد يعود فاتحاً لبلده. أحل، بلده مكة التي أخرج منها وهو يلذف الدمع ويقول: «والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

المأ الأعلى، أما هم فيفكرون هلعين فيما ينتظرونهم، متذكرين ماضيهم الأسود معه.

ونظر إليهم... وهم ينتظرون القضاء العادل... لكنهم مع ذلك كانوا يعرفون أن محمداً هو محمد رسول الرحمة. إنه لن يعاملهم بالعدل. فلو عاملهم بالعدل لانتهى كل شيء. ثم فاجأهم النبي الأعظم بالسؤال: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟» وكأنما كان السؤال نفسه طوق نجا لهم. فسرعان ما أجابوه قائلين: «خيراً... أخ كريم، وابن أخ كريم.» قال: «فاني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾» (يوسف: ٩٢) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

لقد وُلدوا من حديد، ودبت في أوصالهم الحياة، وما كانوا يتخيلون أن يَنقُذُوا -هكذا- في دقيقة واحدة، وبعبارة واحدة، «اذهبوا، فأنتم الطلقاء». لكنه سمى محمد ﷺ في حربه.. سموه في عفره.. سموه في إكرام من ظلموه.. وفي تأليف قلوبهم. فإن أكبر ما بهمه كسبي أعظم أن يدخل إلى قلوبهم، إنه لا يريد الطاعة كملك وإنما يريد الطاعة مع الحب كنبي بعته الله رحمة للعالمين، وقد تحقق له ما أراد.

ثم تتوالى آيات عظمت، فيرفض أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة ويعطيها للعباس ﷺ أو لعليّ ﷺ (بعض بني هاشم قومه)، وقال: «اليوم يوم برّ ووفاء». فالنبي الأعظم لا يعرف الانتقام.

وعندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف على مكة في ظل أوامر صارمة بعدم إراقة الدماء إلا في الدفاع عن النفس أخطأ أحد القادة -وهو الرجل العظيم سعد بن عباد- فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم يدلّ الله قريشاً. فانتزعت منه الراية بأمر الرسول وأعطيت لابنه قيس وصحح الرسول ﷺ العبارة حتى لا تذهب إلى الناس وتروّعهم قاتلاً: «اليوم يوم الرحمة... اليوم يُعزّ الله قريشاً...». وقد صدق... فلولا ولولا دخول مكة في الإسلام لما كانت لمكة قيمة، ولما كان لقريش قيمة أبداً. ﷻ

(٥) أسناد التاريخ والحضارة الإسلامية - مصر.

(١) الرسول قائدًا (التنظير والتطبيق) لمحمد فتح الله كركن، ص: ١٤٢-١٤٤.

إنما ذكريات أليمة كل الألم، بشعة كل البشاعة. وإن أفضل الناس في مواجهتها هو الذي يلتزم «العدل» -على الأكثر- فيقتص لنفسه ولأصحابه، ويسترّد ما اغتصب منه ومنهم، وهو كثير، ويطلب التعويض الكافي عن الاغتراب والملاحقة طيلة هذه المدة الطويلة.

ولعلّ أقل ما يقبل ويتغفر لهذا الفاضل أن يدخل بلدّه شاعراً رافعاً رأسه معترساً بمحمد الذي وصل إليه، وبحقه الذي انتزعه. لكن الرسول الأخلاقي الذي وصفه ربّه بالخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الفلق: ٤)، لم يكن مثل أفضل الناس؛ بل إنه لولا بشرته التي تؤمن بها، وعبوديته التي كان يعدها وسامه الأرفع... لولا البشرية والعبودية لقلنا: إنه لم يكن من الناس، وهو يدخل مكة... لقد كان ملاكاً طاهرّاً ارتفع عن أكبر مدى تستطيع أن ترنو إليه البشرية أو أن تطمع في الوصول إليه.

ونظر إلى آلاف الوجوه التي فعلت به الأفاعيل طيلة عقدين من الزمان، بعد أن دخل مكة من أعلاها، من كداء، وهو يضع رأسه -وهو راكب- على دابته، تكاد تلامس رأسه ظهر الدابة تحسّساً وحضوعاً لله وإقراراً بأنه صاحب الفضل في تدويل الأيام، وفي إعزاز الأذلاء. ولقد كانت رأسه تلمس واسطة الرجل من شدّة الانحناء وهو -مع ذلك- مشغول عن نفسه، وعن أية نظرات ترقبه وهو داخل دخول النبي المنتصر، وليس دخول «الملك» كما قال أبو سفيان للعباس ﷺ: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.. فصحّ له العباس ﷺ، وقال له: إن النبوة..

إنه ﷺ مشغول عن الناس بقراءة سورة الفتح، بينما يخفق قلبه بأروع المشاعر؛ لأنه

في طريقه إلى المسجد الحرام والكعبة، وقد فعل ما أراد، واستلم الحجر الأسود، طاف بالبيت، ولم يكن محرماً ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (الاسراء: ٨١)، ثم دخل إلى حواف الكعبة، فأزال آثار الوثنية في داخلها كما أزالها من خارجها، ثم دار في البيت يوحد الله ويكره. وكل ذلك، وهم ينظرون إليه، إنهم في وادٍ بعيد عنه، إنه في الآخرة، في



السيف الشريف للرسول ﷺ  
متحف طرب فاي - إسطنبول

من صحراء نجد

## نحو الحريّة المُنورة

محمد عاكف \*

... وبيناً أنا في الدعاء، إذا بصوت يجلجل ويصعد:  
 «يا رسول الله!.. أطلقه لوعةً طيفاً أسود،  
 وقَفَّ على الأعتاب وأمسك بالستارة طَيِّبَاتٍ وأكواماً،  
 ثم قهاوى أمام «باب السلام»، فلم يطق قياماً،  
 وما زالت جلجلةً صيحته في الفضاء البعيد،  
 حتى علا خارقاً الأبعادَ صوته من جديد.  
 وحين خَرَّ على أقدام روضة النبي صريعاً،  
 حَضَنَ حديدَ الحاجز المرتطم بصدّره منيعاً،  
 وهمد مستغرقاً إزاء وجه الحبيب الغالي،  
 قائلاً في نشيح: «يا نبيّ انظر إلى حالي!  
 كما يتلَطَّى صدرُ الصحراء في هجير الظاهر،  
 كذلك تَلَطَّطَ روحي في جوى الهجر.  
 وما سكن قطُّ تَشَوُّفي إلى حرمك الطاهر، بروحي وبدني،  
 ولكن تصدى لي أعواماً طويلةً موانع أهلي ووطني،  
 قالوا: «اصبر»، فقلت: «هل الصبرُ دهرٌ؟»  
 فلا بد من نهايةٍ ومهما يُطلُّ الصبر.  
 وذِكْرُ هذا التراب غداً ناراً مُتَقِدّاً في عيني، يَشْوِينِي كُلَّ آنٍ،  
 فما عاد يَصُلُّني من بُعدٍ عوائقُ الأهل والأوطان...  
 فاجتَرْتُ ديار السودان، وألقيْتُ بالعوائق وراء ظهري ودُروني،

وقضيتُ ثلاثة أشهر في المسير، فيا «تهامة» تقطعي وهوني.

ولولا أن أدركتني يا رسول الله مدداً،

لا احترقتُ حتى نخاعي في الصحراء، وصرتُ بدداً؛

فأنفاسك مسّت الرمال فعدت نسيماً عليلاً،

وصوتك سال في كل وادٍ ماءً سلسيلاً،

وما أن صارت إرادتك لما أريد مقصداً ومروماً،

حتى غدا الهمود لحظة في الدروب علي حراماً.

سردتُ على الخلائق طراً الشجر والأحوال،

وسكنتُ على الليالي أشجاني وأنطقُ الجبال...

مضت شهور لم تغمض لي - في حرفتي - عين،

واسأل النجوم إن شئت هل عرف النوم في جفني؟

ثلاثة وخمسون عاماً وأنا في عذاب الفراق هائم،

ثم يصدم جبهتي حائلاً هذا الستار الظالم!

هذي القلوب خلّفت فلذات أكباد ضائقة الصدر،

هل من حقها الرحمة؟ أم أن تُجازى بالخسر؟

فارفع عن موارك الطاهر حديد النقاب،

ولا تمنع روعي العليل من هذا التراب!

وما هذه الشعلة الوضاء؟ أهي نورك يا رسول الله؟»

ثم مرّ آت في سكون، ثم شهقة «آه»..

ماذا أرى؟ امتد على الأرض هذا السوداني...

ويكيه بدمع ذارف مسكين سِلاي...

ويُسدلُ يده جفن عينه، ويُقِلُّه، ويُقِلُّ...

ثم نُقل جثمانه إلى حيث يكفن ويُغسل...

ثم إلى «البقيع» رحل الشهيد ببدنه الفاني...

لكن روحه الخالدة بقيت في «الحرم»، لا تخمد عن هذا المكان. ﷻ

(هـ) من أكبر شعراء الأدب التركي المعاصر. وقصيدته هذه عرضية وطويلة في أصلها. والقسم المنشور هنا من أواخر القصيدة، يُصور فيها مشاعره حيال غيوق رحل سوداني رآه، تُشمل المشاق للوصول إلى المسجد النبوي وزيارة قبره ﷺ، ثم توفاه الله تعالى حين الوصل. الترجمة عن التركية: عون عمر لطفي أوغلو.

أبدأ أردتكم يا أحبّاء قلبي أحراراً طلقاء من كل قيد، لا يستعبدكم إنسان، ولا يكلِّمكم فكر، ولا تستذلِّكم طواغيت الأرض؛ لأنكم أنتم الوعي العالمي للإنسانية، والروح الأمين القوام على عوالم فكرها وروحها وقلوبها.

فقد تساميتُ بكم فوق عيوديات المكان والزمان، ورفعتكم فوق حتميات التاريخ، لترصدوا من آفاقكم العالية تحولات الإنسان وتصححوها، وتراقبوا صيرورات الزمن وتوجهوها، وتخططوا لمسيرة البشرية، وتقودوا مسار الحضارات غير العصور والأزمان، فأنتم -لو عرفتم أنفسكم كما أردتكم وأرادكم الله- أقوى من كل تيار، وأسمى من كل فكر، وأعظم من كل حضارة.

ولكنكم اليوم تتوارون خارج الزمن، وتقبعون في زوايا النسيان، وتتفأنون ظلال الموت، وكأنني لم أفخر في قلوبكم يوماً عزَّ العبودية لله، ولم أقب في دمائكم وهج السُّرِّ والارتقاء، ولم أحلِّ إليكم يوماً السماء بكل أنوارها وأشواقها ورحمتها لتكون نافذةكم في جدار الوجود، والقسمة التي تراقبون منها انسياب نور الإيمان، ودبيب ظلام الكفر على أرض العالم.

أؤاه -يا أشقاء قلبي- لقد لاس نواح أرواحكم المدحورة في معارك الضمير مصاريع أبواب السماء، ورشَّت دماء قتلاكم في معارك الروح أجنحة الملائكة، وأنا رسولكم -محمد بن عبد الله- خسرْتُ بعض معارككم، وذقت مرارة الانكفاء والانحسار، ولكني أبداً لم أعرف حَوْرَ الروح وانسحاق النفس، وأبداً لم تنطفئ شعلة الجهاد في قلبي.

وعندما تنفأ ظلال النصر تحت غاية من سنا سيوفنا المشرعة بالحق من أجل حياة الإنسان الرباني المتفوق، حلم الأحياء، وشوق حيال البشرية، فلهزمجر إذن في ذواتكم أسود التحدي لأفئاص العالم، ولتستعر نفوسكم بأفئاص من روح «بالل» إمام المتحدين، وسيّد الرافضين، الذي كان إذا تنفس أحرقت أنفاسه اللاهية كل ما وضعته أباطيل العالم من قيود للمروء والفكر والوجدان، والذي أشعل بنار «أخذ... أخذ» كل ركائز البشرية من أوهام الدهور، وخرافات السنين والأحقاب، وأضاء بنور «أخذ... أخذ» جوانب الإحاء الإنساني المظلم تحت



صلى الله عليه وسلم

## عند قدمي الحبيب

أديب إبراهيم الدباغ

أَسَاء الشُّوق تتعالى من قلبي لتعانق سماء محمد ﷺ... وفيض الحنين الذي يملأ روحي سلالم ضوء تأخذني نحو آفاق روح محمد ﷺ. وحيال فؤادي العميد سحابة نور تحملي إلى قسَم الصفاء حيث ألتقي سموات محمد ﷺ وأحتويها في صدري وأضمُّ عليها حنايا روحي، فإذا أنا مرتفع على الوجود كله بموضعي من قدمي محمد ﷺ... وإذا بالروح المحمدي العظيم يتمثل لي نوراً ساطعاً كأسياق الفجر، يشقُّ سُدفَةَ القلب المظلم، ويسطع في جنبات النفس كشهاب يتلهب، حارقاً هشيم الضعف البشري، عاصفاً بخَوَر الروح، صاهراً قيود النفس المكلَّبة بأغلال رغائبها، باعثاً الحماس في الذات المنسحقة تحت وطأة هومها، ومضضاً أفكارها، وقد سكب في أذن روحي هذا التشيد المادري، وهذا الهتاف الذي يُذكي نضال الروح، ويؤجج كفاح القلب من أجل انتحاقه من قبضة الظلام، وتحرره من عيوديات الزمن، وهذا هو الهتاف الذي وعته روحي، وهتف به لساني:



يا أمي، يا خير أمة أخرجت للناس! إن دموعكم تساقط في قلبي، وأشجانكم هُرُّ عوالم غبطتي، وليالي عذابكم تُدمي سماوات أفراحي. فَمَنْ غَيْرُ الْقُرْآنِ يَكْفِكُفْ دمعكم، ويغسل حراحاتكم، ويمسح عذاب أيامكم، ويفتح كوى النور في جدران وجودكم؟! جدران وجودكم؟!

لا تَفزعوا من تبعات وجودكم، ولا تحافوا من أفكار قلوبكم، فإن القلب المفكر أحدى على البشرية من ألف عقل مُظلم لا ينفث إلا غسيل حُمقه وشكّه وظلماته.

لا تُشفقوا -يا أصحاب الإيمان- من أنقال كلمة «لا إله إلا الله» فإنها الكلمة التي أذن لها الله أن تكون العقل لجنون كل قلب، والفكر لاضطراب كل نفس، والمحرك الذي يدير محركات التحليق في أنحنحة الإنسان، والمفتاح الذي يفتح به كل باب مغلق في الطبيعة والكون والحياة.

ألا هل بلغت...؟ اللهم فاشهد... ﴿٢٠﴾

(\*) كاتب وأديب - العراق.

رماد من فوارق المال والجنس والسلطان بين بني الإنسان. أي طاقات هائلة تكمن في نفوسكم يا أتباع رسالتي، وأي قوى عظيمة تختفي في طيأت ذواتكم، وأي بحار وضاءة من الإدراك الروحي قد هدأت أعماقها في أعماقكم وهي تنتظر مَنْ يهيجها بعواصف روحه، ويحركها بقاصف من رعود سمائه.

لقد أودعتكم أئمن كنوزي، وصيّبت في أرواحكم مُذاب روعي، وسكبت في قلوبكم معصور قلبي، وأضواء فكري، وأورشلكم حيائي، نبعا إنسانيا قِيَاضاً ترفده ينباع السماء، وممازجه أنوار الرُوح، لتكون سلماً للطامحين إلى السمو وقمةً للمتشوقين إلى القمم، ومنازلاً للتائهين في بحار ظلمات الحياة.

حَطّموا زُنايات نفوسكم.. اهدموا جدران أرواحكم.. سَرّحوا ضمايركم من قيودها، وارتفعوا بها طليقة من كل ما يُخلدّها إلى الأرض ويأسّها في التراب، لتتعالى في سماء الله حيث مغاص الحرية، وسلام الانعتاق من كل عبوديات الأرض.





# من آفاق الذات المحمدية

إحسان قاسم الصالحى\*

السموات، ويلتقي إخوانه الأنبياء فرداً فرداً، كلاً في مقامه في تلك السموات، حتى عرج به إلى مقام «قَابِ قَوْسَيْنِ»، فشرّفه بالأحذية، بكلامه وبرؤيته؛ ليجعل ذلك العبد عبداً جامعاً لجميع الكمالات الإنسانية، ناقلاً جميع التحليلات الإلهية، شاهداً على جميع طبقات الكائنات، داعياً إلى سلطان الربوبية، مبلغاً للمرضيات الإلهية، كشافاً لطسّم الكائنات»<sup>(١)</sup>.

نعم، إنه حبيب رب العالمين، فهو الذي أراه جميع أنواع تجلي محبته المبثوثة في جميع الموجدات.. فاصطفاه -وهو ثمرة منوّرة من شجرة الخلق- بالمعراج مُظهرًا محبوبيته أمام الكائنات قاطبة «فرقاه إلى حضوره، وشرّفه برؤية جماله، وأكّرمه بأمره، وأناط به وظيفة جعل ما عنده من حكمة قدسية تسري إلى الآخرين»<sup>(٢)</sup>.

وهذه النظرة الصائبة التي تتخذ من أحوال الرسول ﷺ البشرية وصفاته الإنسانية أساساً ومُدخلاً للتعرف على ذاته الحقيقية وشخصيته الروحية الثورانية ينحو الإنسان من النظرة القاصرة إليه ﷺ، فلولا لظل الإنسان بل الكون كله هماً ضائعاً سَقَطاً لا يلتفت إليه أحد، ولا يثير اهتمام أحد، ولظل هذا المخلوق المكرم عاتماً فوق سطحيته نفسه الخاوية، وحذب روحه، وقَفَّر عقله. فهو ﷺ الذي أثار قوى الإنسان الخفية، وأعانه على اكتشاف نفسه، والعنور على جوهر إنسانيته.

وهو الذي وسَّع من أفق تفكيره، وعلمه كيف يكون كوني التفكير، يشارك الكون في أفكاره باعتباره جزءاً لا يتجزأ منه، ويعوص في خفايا الوجود بعقل قوي وإرادة حيوية متأججة. وقد استطاع ﷺ أن يجعل الانتشاء العقلي والروحي الإنمائي هو الانتشاء الأقوى والأعم والأهم على كل الانتشاءات الجسدية

! إن حلّ اهتمام كتاب السيرة النبوية -حزاهم الله خيراً- قد ترَكّر على كمال بشريته ﷺ جميع حوائثه المتنوعة طوال حياته المباركة. فهذه الوقائع الحياتية الكثيرة والمتعددة الجوانب التي سبّلتها الصبح الكرام رضوان الله عليهم أجمعين بأدق تفاصيلها، لا تمثل إلا جانباً يسيراً من كمال شخصيته المعنوية أو الروحية الذي لا يمكن خوارث بشرية قليلة أن تعبّر عنه أو تعكسه على صفحة الوجود، فـ«أتى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كل من جبرائيل وميكائيل ومرافقين أمينين»<sup>(٣)</sup> له في غزوة بدر أن تنحصر في حالة ظاهرية أو أن تُظهرها بجلاء حادثة بشرية»<sup>(٤)</sup>. ذلك لأنه تضاف يومياً، بل حتى الآن، وفي كل دقيقة منه، إلى صحيفة كمالاته ﷺ أنوبة عظيمة وعبادة خالصة بقدر ما يعتمه كل مؤمن من أمته بأكملها. وذلك في ضوء «من دلّ على الخير فله مثل أجر فاعله»<sup>(٥)</sup>. وكما ينال ﷺ بما وهبه الله من استعداد غير متناه نجات الرحمة الإلهية غير المتناهية بشكل غير متناه وبقدرة غير متناهية، كذلك ينال يومياً دعاءً غير محدود ممن لا يُحد من أمته.

لذا ففي الوقت الذي نفكر في حياته البشرية أو نسمع معجزاته الباهرة، يلزم أن نرفع عين الخيال عالياً ونصوّر هذا النبي الكريم ﷺ الذي هو أنبل نتائج الكائنات وأكمل ثمراتها والمبلغ عن خالق الكون، وحبيب رب العالمين وممثل الإنسانية وإمام المخلوقات جميعاً، وهو يعرج السماوات العُلا ويطوف في أرجاء الملوكوت. فيطّلع سبحاته وتعالى على الآيات الكبرى والآثار الجليلة واحدة تلو الأخرى وقد «علا به البراق وقطع به المراتب كالرق من دائرة إلى دائرة، ومن منزل إلى منزل، كمنازل القمر، لثيرة ربوبية ألوهيته في



والعاطفية التي كان الانسان غارقاً فيها من أحصى قدميه حتى قمة رأسه.

### كيف السبيل لمعرفة شخصيته ﷺ الحقيقية؟

ولكن كيف يمكن لأذهاننا أن تستوعب هذه الشخصية العظيمة التي تُعطي للكون معنى ومغزى؟ نرى الأستاذ النورسي يأخذ بأيدينا في سياحة قلبية لرؤية ملامح هذه الشخصية فيقول:

«هو الذي لعظمته المعنوية صار سطح الأرض مسجده، ومكة محرابه، والمدينة منبره؛ وهو إمام جميع المؤمنين بآتمون به صافين خَلْفَهُ.. وخطيب جميع البشر بين لم دساتير سعادتهم.. ورئيس جميع الأنبياء يزكّيهم ويصدّقهم بجماعية دينه لأساسات أديانهم.. وسيد جميع الأولياء يُرشددهم ويُريّهم بشمس رسالته.. وقطبٌ في مركز دائرة حلقة ذكر تركّبت من الأنبياء والأعيان والصديقين والأبرار المتّقين على كلمته الناطقين بها.. وشجرة نورانية عروفتها الحوية الثنية هي الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانها الخضرة الطرية وممراتها اللطيفة الثيرة هم الأولياء بمعارفهم الإلهامية. فما من دعوى يدعيها إلا ويشهد له جميع الأنبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميع الأولياء مستندين بكراماتهم، فكان على كل دعوى من دعاويه خواتم جميع الكاملين، إذ بينما تراه قال: «لا إله إلا الله» وأدعى التوحيد، فإذا بنا نسمع من الماضي والمستقبل من الصّفيّين النورانيين -أي شمس البشر ونجومها القاعدين في دائرة الذكر- عين تلك الكلمة، فيكرونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم. فكانهم يقولون بالإجماع: «صدّقت وبالحق نطقت». فأنتي لوهم أن يمدّ يده لردّ دعوى تأيّدت بشهادات من لا يُحَدّ من الشاهدين الذين تركّبهم معجزاتهم وكراماتهم»<sup>(١)</sup>.

### محمد ﷺ والكون

إن الأستاذ النورسي يربط سيرة الرسول العطرة وحياته المادية والمعنوية بالكون كله وبالحياء بأجمعها وكيف أنه ﷺ هو معنى الوجود إذ يقول: «نعم» كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والخس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها؛ والعقل مترشح من الشعور والخس، فهو خلاصة الشعور؛ والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاقها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية - المادية والمعنوية - مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي

خلاصة خلاصتها؛ والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعوره وعقله، فهي أصفى خلاصته؛ بل إن حياة محمد ﷺ -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياة حياة الكون؛ والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونسور لسه؛ والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح حياة الكون وعقل لشعوره.. أجل... أجل... أجل»<sup>(٢)</sup>.

### إنه ﷺ معنى الوجود

نعم، إن نوره ﷺ هو الذي يفصح عن معنى الوجود ومغزى كل حادث. فلو أنه لظل كتاب الكون الرائع هذا بلا معنى ولا مغزى.

أجل، إن فخر الكائنات وخاتم الرسل ﷺ هو أساس الوجود وخلاصته وحجيره، فليس هناك موضع في الكون تخلو من حقيقة نوره. فمثل كمثل نواة بذرة شجرة باسقة تضم كل خصائص تلك الشجرة. فنوره أسس للوجود كله، ألا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، واستسلمت الأرض والسموات كلها له سبحانه ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (ص: ١١) أليس الرسول الكريم ﷺ يمثل الإسلام أصدق تمثيل؟! فهو الإسلام بعينه، وهو القرآن الحي الناطق، كما وصفته أمنا عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن أخلاقه ﷺ: «كان خلقه القرآن»<sup>(٣)</sup>. وأنتي عليه الرب الكريم ثناء لا يليق إلا به: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الفتح: ٤).

ومن هنا نرى أن الأستاذ النورسي عندما يصف نور محمد ﷺ بأنه الإسلام بعينه وحقيقة الوجود بعينها، يقول: «اعلم أنه بينما ترى العالم كتاباً كبيراً ترى نور محمد عليه الصلاة والسلام مداد قلم الكاتب.. وبينما ترى العالم يليس صورة الشجرة ترى نوره عليه الصلاة والسلام نواها أولاً، وممرها ثانياً.. وبينما ترى العالم تحوّل إنساناً كبيراً ترى نوره عليه الصلاة والسلام عقله.. وبينما ترى العالم حديقة مزهرة ترى نوره عليه الصلاة والسلام عندليه.. وبينما ترى العالم قصراً مزيناً عالياً ذا سردافات تتظاهر فيها شجعة سلطنة سلطان الأزل وخوارق حششته، ومحاسن تجليات جماله، وتقوش خوارق صنعته، إذن ترى نوره عليه الصلاة والسلام نظاراً يرى لنفسه أولاً، ثم ينادي بسيا أيها الناس تعالوا إلى هذه المناظر النزيهة، وحيهلوا<sup>(٤)</sup> على ما كنتم فيه شيء من المحبة والخيرة والتسرة والتقدير، والتور والتفكير وما لا يُعد من المطالب العالية. ويريه الناس، ويشاهد ويشهد لهم.. يتحير ويحيرهم..



يُحِبُّ وَيُحِبُّ مَالَكُهُ إِلَيْهِمْ.. يستضيء ويضيء،  
لهم.. يستفيض ويفيض عليهم»<sup>(١٠)</sup>.

### معجزة المعجزات

أترانا قلنا شيئا عن هذا النبي الحبيب ﷺ الذي هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، إذ قد «أجمعت الأمة - حتى الأعداء- على أنه جامعٌ لجميع الخصال الحميدة، بل اشتهر حتى قبل البعثة النبوية بـ«محمد الأمين» لكمال أخلاقه، وقد ثبت بالتواتر المعنوي القاطع وبإجماع الأمة: أنه أجلُّ الناس صورةً، وأحسنهم سريرةً، وألطفهم حلماً، وأزهدهم شكراً، وأشدَّهم تواضعاً، وأصبرهم، وأزهدهم، وأعفاهم، وأجودهم، وأكرمهم، وأرحمهم، وأعدلهم، وأكترهم مروءةً وقاراً، وأفضلهم صفحاً وسداداً وأزهدهم شفقةً على الخلق... فهو أكملُ خلاصة نورانية هذه السحاي العالية والخصال السامية وأمثالها كلها.

ونقطة الإعجاز في هذه الخصال هي: أنه على الرغم من أن الأخلاق الحميدة لا تتخالف ولا تتباين فيما بينها، فإنها تتزاحم في درجة الكمال، فلو تفوقت إحداها ضعفت الأخرى. فاجتماعُ كمالِ الحلم مع كمالِ الشجاعة، وكمالِ التواضع مع كمالِ الشهامة، وكمالِ العدالة مع كمالِ المروءة والرحمة، ومنتهى الاقتصاد والاعتدال مع منتهى الكرم والسخاء، وغاية الرقار مع منتهى الحياء، وغاية الرفقة مع منتهى البغض في الله، وغاية الغفو والصفح مع منتهى العزة بالنفس، وغاية التوكل مع منتهى الاجتهاد والسعي... فاجتماعُ أمثال هذه الأخلاق الراقية المتزاحمة في شخص واحد، كل في ذروتها، دفعةً واحدة، وانكشافها من دون تدافع وتزاحم هو معجزة المعجزات»<sup>(١١)</sup>.

نعم، ليس لنا أن نقول إلا كما قال الشاعر العظيم:

ما إن مدحتُ مُحمداً بمقالاتي

لكنْ مدحتُ مقالتي بمحمدٍ

ونغم هذا الكلام المتقضب بالصلاة والسلام على ذلك الحبيب الحبيب، ذي المعجزات بصلوات وسلام تشير إلى قسم من معجزاته: على من أنزل عليه القرآن الحكيم من الرحمن الرحيم من العرش العظيم. على سيدنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد أنفاس أمته. على من بشر برسائله التوراة



والإنجيل والزبور والزبور. وبشر نبوته الإرهاسات وهواتف الجن وكواهن البشر واتشّق بإشارته القمر.. سيدنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد حسنات أمته. على من جاءت لدعوته الشجر، ونزل سرعة بدعائه المطر، وأظننه الغمامة من الحر، وشيع من صاع من طعامه مثاق من البشر، ونبيع الماء من بين أصابعه ثلاث مرّات كالكوثر، وأنطق الله له الضبّ والظبي والذئب والجذع والسنذراع والجمل والجبل والحجر والمدر والشجر.. صاحب المعراج وما زاغ البصر.. سيدنا وشفيعنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد كل الحروف المتشكلة في الكلمات المتمثلة بإذن الرحمن في مرايا عوجات الهواء عند قراءة كل كلمة من القرآن من كل قارئ من أول النزول إلى آخر الزمان، واغفر لنا وارحمنا يا إلها بكل صلاة منها.. آمين»<sup>(١٢)</sup>.

(\*) مترجم «كليات رسائل النور» إلى العربية ومدير مركز رسائل النور - تركيا.

افواش:

- (١) انظر: البحاري (١٠٣/٥) باب شهود الملائكة بدرأ.
- (٢) المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ١٢٣.
- (٣) مسلم، الإمارة ١١٣٣، كشف الخفاء للعجلوني، ٣٩٩/١.
- (٤) الكلمات للنورسي، ص ٦٧٢.
- (٥) الكلمات للنورسي، ص ٦٨٥.
- (٦) الكلمات للنورسي، ص ٢٥٥.
- (٧) الكلمات للنورسي، ص ١١٩.
- (٨) جزء من حديث عائشة رضي الله عنها. أخرجه مسلم ٧٤٦ واحد ٥٤/٦، ٩١، ١٦٣، وأبو داود ١٣٤٢ والسائي ١٩٩/٣.
- (٩) حيهلوا: اسم فعل بمعنى أقبلوا وعجلوا وهلتوا.
- (١٠) للتبوي العربي النورسي ص ٢١٩.
- (١١) شعاغات معرفة النبي ﷺ.
- (١٢) الكلمات للنورسي، ص ٢٦٣.



«إن رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجة للجهل أو التعصب، قد رسموا لدين محمد ﷺ صورة قائمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًا للمسيحية، لكنني أطلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًا للمسيحية، بل يجب أن يسمى منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوفى في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.»

برناردشو، عن كتابه «محمد»



## السيرة النبوية مشروعاً حضارياً

أ. د. عماد الدين خليل \*

### ١. النظرة التجزئية إلى السيرة

هذا يمارس تقطيعاً للوقائع الأساسية، واختراقاً لنسيجها بوقائع أخرى تتحرك في سياق مغاير، كأن يتم الحديث في السنة أو الحولية الواحدة عن الصراع ضد الوثنية واليهود والبيزنطيين والمنافيين، جنباً إلى جنب مع المعطيات التشريعية أو الدعوية أو العبدية أو السلوكية... الخ.

كما أن الرؤية النقدية كادت أن تغيب عن تلك الأعمال؛ فكان أصحابها يسلّمون بالغث والسمين، ما يمكن قبوله وما لا يمكن.. الأمر الذي أضاف إلى وقائع السيرة الأساسية أجساماً غريبة، وقادها إلى نوع من التضخم على حساب بنيتها الأصلية المثق عليها.

### ٢. المنهج الأكاديمي والسيرة

ولحسن الحظ بدأ النصف الثاني من القرن الفائت يشهد تطوراً ملحوظاً في دراسات السيرة، على مستوى المنهج والموضوع. وراحت هذه الدراسات تزداد -بمرور الوقت- نضجاً وإحكاماً بسبب من الوعي المتزايد بمطالب منهج البحث من جهة، والرغبة العلمية الصادقة في الرد على المحاولات الجاشة في التعامل مع السيرة، سواء جاءت من الخارج على يد المستشرقين بأجنتهم وانتماءهم وتوجهاتهم كافة، أو من الداخل على أيدي المغالين أو المنساقين وراء الميول والأهواء والتحيزات، أو المتأثرين بالمعطيات الاستشراقية في توجهاتها كافة.

ثم جاء تنامي النشاط الأكاديمي، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات، لا لكي تُعزز القيم المنهجية

إلى عهد ليس بعيد -ربما يكون منتصف القرن الماضي- كانت البحوث والدراسات والمصنفات المعنية بسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة تنحو -في معظمها- منحنى تقليدياً يرمي بنقله في اتجاه المعارك والغزوات والشمائل، وقد يعالج المفردات الدعوية والتشريعية والسلوكية منفصلة عن سياقها العضوي العام. لكنه لم يكد ينفث إلى البعد الحضاري لهذا العصر الذي أقام دولة كبرى، ونسج تشريعاً حصيباً، وهياً الشروط لقيام حضارة متميزة.

ثم إن معظم الباحثين سَحَبوا رؤيتهم التجزئية في تعاملهم مع العصر إلى صيغ التعامل مع «المصادر» التي استَقَوْا منها مادتهم التاريخية؛ فلم يحاولوا -إلا في القليل النادر- أن يكسروا الفواصل بين أنماط تلك المصادر، وأن يستدعوا كل تلك الأنماط من أجل وضع أيديهم على الصورة الأكثر مقاربة لسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة: القرآن الكريم وتفسيره، الحديث النبوي الشريف، كتب الأدب ودواوين الشعر، كتب الفقه، كتب الجغرافيا والرحلات؛ فضلاً عن كتب التاريخ في أنماطها كافة: السيرة، التاريخ العام، التاريخ المحلي، تواريخ المدن، التراجم، الأسباب والطبقات.

هذا إلى أنهم التزموا الخط الزمني لوقائع السيرة، فكانوا يتحدثون عن وقائع كل سنة مُجْتَرِئة عن وحدتها الموضوعية، أسوة بما كان الأجداد يفعلونه فيما يُسمى بالحواليات. وكان

التي مكّنت الأمة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن.

ولعلّ المُلَوَّنَات الأولى لأخباري ومؤرخي السيرة كمغازي الواقدي، وسيرة ابن إسحاق، وطبقات ابن سعد، وأنساب البلاذري، وتاريخ الطبري... إلخ، بإعطائها مساحة واسعة للمغازي -وأحياناً للرجال أو الشمال- ضيّقت الخناق على البعد العمراني أو الحضاري لعصر الرسالة الذي تمكّن بعد كفاح مرير من إقامة دولة الإسلام، ووضع التأسيسات الأولى لحضارته المتميزة.

عشرات السنين ومئاتها، ونحن نتحدث عن هذا العصر من الداخل، وبرؤية تجريبية تتركز عند الغزوات، والشمال، والمفردات الفقهية. ولقد آن الأوان لاعتماد «رؤية الطائر» إذا صح التعبير، لاستشراف الملامح الأساسية للعصر، والإنجازات الكبرى لرسول الله ﷺ وصحابه الكرام رضي الله عنهم.

ولا بد، من أجل التحقق برؤية كهذه، من استدعاء المؤرخ والمفسر والمحدث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والأديب لتوسيع نطاق القضاء المعرفي عن العصر.. هاهنا حيث يصير النصّ القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملاحم البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلاً عن الدلالات المحددة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي.. هاهنا المصادر الأساسية التي يكمل بعضها الآخر من أجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له، ووضعت شروطه التأسيسية، ونقلت بعض حلقاته، «سيرة» رسول الله ﷺ.

إننا ونحن نتحدث عن «السيرة» وشروطها المنهجية، يجب ألا ننسى لحظة واحدة أن القرآن الكريم هو الوثيقة «التاريخية» الأكثر أهمية في دراسة العصر ومحاولة الإنلام بنضه الأساسي وملاحمه المتفرّدة. وإنه (أي القرآن الكريم) ينطوي على شبكة خصبة من المعطيات التاريخية التي تحمل مصداقيتها المطلقة، والتي تشكل -بالثاني- نقاط الارتكاز في بنية السيرة حيث يجيء المحدث والفقيه والمؤرخ واللغوي والجغرافي والأديب فيقيم بنيانه عليها.

#### ٤. الالتحام الحميم بين التفسير والتاريخ

وبنظرة سريعة إلى «أسباب النزول» في التفسير القرآني والمصادر الخاصة بالموضوع، يتبين للمرء الالتحام الحميم

الأصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وإنما أيضاً لكي تنفّذ دراسات معمّقة في هذه الواقعة أو تلك، وفق معايير نقدية صارمة، وقدره على الإمساك بالذائق والتفاصيل والجزئيات، تُعين الباحث على الإيغال في شرايين الواقعة من أجل الوصول أو محاولة الوصول إلى بينتها الأساسية كما تشكّلت فعلاً، لا كما إراد لها الرواة والأخباريون والمؤرخون أن تكون.

وفي موازاة هذا، أخذت تظهر دراسات تخصصية في السيرة باتجاه آخر... لا تقف عند هذه الواقعة أو تلك في نسيجها العام، وإنما تتعامل معها ككل، ولكن من منطلق منهجي محدد يسعى لأن يتابع معطيات السيرة عبر هذا التوجه أو ذاك من مجراها العام.

وهكذا ظهر كتاب «فقه السيرة» للغزالي لكي يقدم رؤية دعوية للسيرة، وكتاب البوطي بالعنوان نفسه لكي يقدم رؤية فقهية، والشهيد سيد قطب ومير الغضبان لكي يقدموا رؤية حرّكية، وباحثون آخرون قدموا رؤية تربوية أو أخلاقية أو سلوكية أو سياسية.. هذا إلى قيام الدكتور أكرم العمري وعدد من طلبة الدراسات العليا بتنفيذ منهج المحدثين في التعامل مع مرويات السيرة.

وفي موازاة هذا كله استمرت مكتبة السيرة تشهد دراسات ثنوية تناول السيرة في حلقاتها كافة، ولكن وفق منهج أكثر دقة وانضباطاً وإحكاماً، يسعى لأن يضم جناحيه على أبعاد السيرة كافة؛ دعوية وحرّكية وفقهية وسلوكية وسياسية وعسكرية... محاولاً ألا يمرّ إلا المرويات الأكثر قبولا على مستوى الرواية والنداء، أو الإنسان والمثل.

#### ٣. البعد الحضاري للسيرة

ولكن رغم هذا العطاء السخي، ظلّت هناك حلقة لم تمل حظها من البحث والدروس والاستقصاء والتحليل، بالمقارنة مع الحلقات الأخرى؛ تلك هي الحلقة الحضارية، أو بعبارة أكثر دقة، محاولة متابعة البعد الحضاري للسيرة، وتقديم تصوّر متكامل عن معطياتها الأساسية.

ورغم أن العقدين الأخيرين شهدا عدداً من المحاولات في هذا الاتجاه لا تتجاوز -رغم- أصابع اليد الواحدة، فإن الحاجة لا تزال تتطلب المزيد من المحاولات، من أجل إعطاء هذا الجانب من السيرة حقه، والإلمام بمواجهته كافة.

لقد بشر عصر الرسالة بمشروع حضاري، وتمكّن من تنفيذ العديد من حلقاته، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية

بين التشريب والتاريخ. إن المعطى القرآني بزهص، ويصف، ويعقب، وينثر، ويعد... وهو في خطواته الخمس هذه يمارس تغطية تاريخية للعديد من وقائع السيرة المتشككة في الزمن والمكان، أي في التاريخ.

ولقد تحدث الشهيد سيد قطب طويلاً عن هذه المسألة وهو يكتب مقدماته الخصبية في «الظلال»، عبر تفسيره لسور النبي قدّمت مادة سخية عن العديد من الغزوات والوقائع والمعطيات التفسيرية، على مدى عصر الرسالة من بدئه حتى منتهاه. كما تحدث عن طريقة عمل القرآن الكريم في إحداث التغيير، وهو في بدء التحليل ولهايته، تغيير تاريخي ينطوي بالضرورة على بعده الحضاري أو العمراني، بالمفهوم الشامل للكلمة.

لقد كانت حياة الرسول ﷺ الكادحة وجهده الموصول حتى آخر لحظة شهادة حية على قدرة هذا الرجل النبي، على الإنجاز والتغيير بكل ما ينطوي عليه الكلمتان من بعد حضاري. ولقد جاءت شهادة الباحث الأمريكي المعاصر «مايكل هارت» في «المائة الأولى» تأكيداً لهذا المعنى.

لقد حاول الباحث المذكور أن يستقصي ويدرس معياري الإنجاز والتغيير، أعظم مائة شخصية في تاريخ البشرية... ثم مضى لكي ينفذ خطوة ثانية، باختيار أعظم رجل من بين هذه الشخصيات المائة، وبالمعايير ذاتهما، فإذا باختياره يقع على محمد ﷺ فيعتمده أعظم شخصية في التاريخ، وذلك في قدرته على تنفيذ إنجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معاً.

وعندما جاءت السنة التاسعة للهجرة، ونزلت آيات (أو إعلان) براءة في صدر سورة التوبة، لتصفية الوجود الوثنّي في جزيرة العرب، كان رسول الله ﷺ قد حقق، وصحابه الكرام ﷺ على مستوى الفعل التاريخي، المنجزات التالية التي ينطوي كل منها على بُعد حضاري مؤكّد:

أولاً: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

ثانياً: الوحدة في مواجهة التجزؤ.

ثالثاً: الدولة في مواجهة القبيلة.

رابعاً: التشريع في مواجهة العرف.

خامساً: المؤسسة في مواجهة التقاليد.

سادساً: الأمة في مواجهة العشيرة.

سابعاً: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

ثامناً: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهو.

تاسعاً: المعرفة في مواجهة الجهل والامية.

عاشراً: الإنسان المسلم الجديد المترجم بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجددة في العقيدة، في مواجهة الجاهلي المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكرهية النظام.

وكانت آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وتعاليمه قد أرست حملة من القيم للنهضة وآليات العمل التي مهّدت للمتغيرات العشرة الآتية الذكر، ودعمتها، ووضعت - إلى جانبها - شبكة من الشروط هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري، ومن بين تلك القيم والآليات:

١. المعرفة هي حجر الزاوية. ٢. التسرع إلى الأمام.
٣. التحذير من هدر الطاقة. ٤. مبدأ الاستحلاف. ٥. مبدأ التسخير. ٦. التحفيز على العمل والإبداع. ٧. مجاهدة التخريب والإفساد. ٨. التوازن بين الأضداد والثبات، وتوحيدها. ٩. التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون. ١٠. تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة.<sup>(١)</sup>

لقد جاء الإسلام لكي يتحرك وفق دوائر ثلاث: تبدأ بالإنسان وتمر بالدولة وتنتهي إلى الحضارة التي سيقدر لها أن تتداح لكي تغطي مساحات واسعة من العالم القديم.

لقد كان هدف الجهد النبوي في عصر الرسالة هو التأسيس لحضارة إيمانية تستمد متيجها ومفرداتها من هدي الله سبحانه، وتقوم على لقاء الوحي بالوجود، لمجابهة حضارات الكفر والضلال، وإزاحتها، والتحقق بالبديل الحضاري الملائم للإنسان ووظيفته التبعية والعمرانية.. البديل المتوازن في مواجهة حضارات الميل والانحراف: «وَاللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا» (النساء: ٢٧).

ويبقى عصر الرسالة منجماً سخياً للعطاء وفق هذا المنهج أو ذاك فيما لم يشهده عصر من العصور. وما ذاك إلا ما حققه هذا العصر من تغيير جذري عملياً وإقليمياً وعالمياً، وعلى كل المستويات، ولما انطوى عليه من قيم وخبرات تلك القدرة على الفاعلية والحضور في كل زمان ومكان. ■

(٥) كلية الآداب، جامعة الموصل - العراق.

(١) تمت معالجة هذه المبادئ بالتفصيل في كتاب (مدخل إلى التاريخ والحضارة والاسلامية) للمؤلف، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا - ٢٠٠١ م، ص ٣٠٩.

## النور الخالد

## محمد حسن

أحمد مجت \*



وأول ملاحظة عن كتاب «النور الخالد» أنه لا يتناول السيرة كسرد أحداث و ذكر تواريخ.. بل يتناولها من ناحية فقها وحكمتها ومعانيها وأسراها، وهذا أصعب ولكنه جهد مطلوب.

## تسليط الضوء على شخصية

إن تسليط الضوء على شخصية الرسول محمد ﷺ، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكدواء للمشاكل المستعصية على الحل وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له... هذا كله كان هاجسا من هواجس فكر الشيخ فتح الله كولن، وموضوعا مهما من المواضيع التي لا سبيل للمقاومة جاذبيتها وسحرها.

وهو يبدأ كتابه بمقدمة يميل فيها لجانب التفاؤل فيقول: «يكفي للاستدلال على عظمتها ﷺ أنه بالرغم من كل عوامل الخدم التي أصابت عصرنا، إلا أننا ما زلنا نسبح من فوق المآذن أصدااء نداء «أشهد أن محمداً رسول الله». تأملوا هذه الكرامة، إن جميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب أو يزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزتها الإنسانية، وبدأ الشباب يهرع إليه بكل فرح وجور. لا أدري إذا كنتم قد انتبهتم إلى الذين يملأون المساجد على سعتها في صلاة الجمعة، لو دققتم النظر لاكتشفتم أن معظمهم من الشباب. ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القارس وفي المطر والتلج إلى المساجد وإلى الوضوء وأسنانهم تصطبك من البرد؟ من يدفع هؤلاء -برغم محاولة أرباب الضلالة والطغيان- جذبهم نحوهم بقوة لا تقاوم؟ إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ».

واضح من كتاب «النور الخالد» أن صاحبه كتب بحب عميق للرسول ﷺ، يقول الشيخ محمد فتح الله كولن: «عندما من الله عليّ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أغفر وجهي بترابها بدأت لي مدينة الرسول مضيئة ونورانية إلى درجة أنني دقت معها سعادة روحية غامرة وفرحاً لا يوصف، وشعرت أنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي أبواب الجنة كلها ودعيت أن

حين نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، كان معنى هذا أن الأمر الإلهي بإعلان الإسلام قد جاء.. من هذا اليوم بدأت الحرب ضد الإسلام والمسلمين والرسول ﷺ، وتركز الهجوم على شخص الرسول ودعوته. قال تعالى ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٥٤-٥٥). وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِتْتَحِدُونَكَ إِلَّا هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَيْمَنِ الَّذِينَ يَبَعُثُ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْآيَةِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان: ٤١-٤٢).

ومضت دعوة النبي وانغرس في الأرض أشواك المشركين؛ أقاموا النبي بأنه كاهن، وأقموه بالجنون، وأقموه بالسحر، وأقموه بأنه افتري ما جاء به من الحق، وأغانه عليه قوم آخرون، ﴿وَقَالُوا أَأُطِيعُوا الْأَوَّلِينَ﴾ أَكْتَبَهَا فِيهِ تَمْلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (الفرقان: ٥). وطلبوا منه معجزات، من لون معين، وهي معجزات طلبها أقوام قبلهم ليؤمنوا ورغم ذلك لم يؤمنوا. وزادت ضراوة المشركين في السخرية والتحريج والاستهانة، وكان الرسول يحزن لعناد الناس، وواساه الله تعالى فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْحِلُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).

## كتاب «النور الخالد»

أحيانا تكون اللغة عائقا في انتشار الثقافة وعموم الفائدة، من هنا تجيء أهمية الترجمة. وقد ظهر في تركيا كتاب عن الرسول صلاة الله وسلامه عليه، وظلّت جواهر هذا الكتاب في متناول الأتراك وحدهم حتى ترجم الكتاب إلى اللغة العربية، وباتت كنوزه في متناول العرب.

قام بترجمة الكتاب الأديب التركي أورهان محمد علي، أما مؤلف الكتاب فهو العالم الجليل محمد فتح الله كولن.. اسم الكتاب «النور الخالد محمد، مفخرة الإنسانية»..



أدخل على أن أترك المدينة لرفضت مفضلاً البقاء في المدينة المنورة».

### رحمة للعالمين

يبدأ الشيخ محمد فتح الله كولن حديثه عن النبي المرسل رحمة للعالمين برسم لوحة لشكل الدنيا يومئذ الدنيا يسودها ظلام دامس، ظلام يحمل في طياته نورا مرتقبا، وأصداء تحمل بشري ظهور نبي جديد.

لم يكن إنسان ذلك العصر يحمل قيمة تعطي للحياة معنى، وتعمل لها هدفا يستحق العيش من أجله. كان اسم هذا العصر «عصر الجاهلية»، والجاهلية هنا لا تأتي كتقيض للعلم، بل كمرادف للكفر الذي هو تقيض الإيمان والاعتقاد. كان بحمي الرسول ﷺ نعمة كبرى للبشرية، ورحمة سابعة للعالمين، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤). كان العهد الذي سبق بعثة الرسول عهدا مظلماً؛ وكل عهد تهنز فيه عقيدة التوحيد يعدّ عهداً مظلماً، لأن الإيمان بالله إذا لم يحكم جميع القلوب بسلطان الظلام على الأرواح واسودت القلوب وعميت، فلم تعد قادرة على الرؤية.

### العبودية لله

يتحدث الأستاذ محمد فتح الله كولن عن الغاية من إرسال الأنبياء.. ورغم وجود فروق في المراتب والدرجات بينهم فإنهم يشتركون في شيء واحد؛ إنهم أناس مختارون مصطفون تجلت عليهم رحمة الله تعالى، فرباهم وآدمهم وفصلهم على العالمين، وجعل قلوبهم مقتصرة عليه لا تقوم حول أحد غيره. وتلقني الغاية التي من أجلها أرسل الأنبياء والرسول مع غاية خلق الإنسان وهي العبودية لله تعالى، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الغاية فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وإذن فإن الغاية الأساسية من خلقنا والهدف الرئيسي له هو معرفة الله، وإيفاء حقه من العبودية، وليس اقتناء القصور والأموال أو الأكل والشرب والتمتع بلذات الدنيا.. وصحح أن هذه الأمور حاجات فطرية إلا أنها لا تشكل غاية لخلقنا. وما جاء الأنبياء والرسول إلا لكي يدلّونا على هذه الغاية ويرشدوا إلى هذا الطريق. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

الغاية الأخرى من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الدني، فلو لم يأتوا لَمَا عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولَمَا عرفنا واجباتنا وما فُرض علينا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، والتبليغ يعني إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، والتبليغ هو سر إرسال الأنبياء.

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى لآلبياته ورسله أن يكونوا أسوة حسنة وقدوة متبعة لأمتهم. إن القرآن الكريم يخاطبنا قائلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١). أيضا يأتي الأنبياء والرسول لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا أَنْتَ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَلَا تَتَسَوَّيْنَا مِنَ الدُّنْيَا﴾ (التقصير: ٧٧).

### الأمين

لا يقوم النبي بدعوته تنجيه تفكيره الذاتي، أو قناعاته بفلسفة خاصة، أو نظام معين رآه صالحاً. ليست النبوة كسبيا بشريا، إنما هي اصطفاؤه واختيار من الله تعالى، وهي وحي يوحيه الله لمن يختاره من عباده للمكرمين. وإذا كان التجرد هو صفة الأنبياء الأولى فإن الأمانة هي صفتهم الثانية، وهي صفة يشير إليها القرآن في أكثر من آية.

إن صفة الأمانة تتكرر مع كل الرسل كما تتكرر مع الملائكة الكرام؛ حيث أثنى الله تبارك وتعالى على جبريل عليه السلام وقال في وصفه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ (التكوير: ٢٠-٢١). أما الرسول ﷺ فكان آميناً قبل بعثته بالنبوة، وكان آميناً على الوحي الإلهي بعد بعثته، وكان آميناً حيال الوجود كله، فلم تكن روح الأمانة ومفهومها عنده مقتصرًا على البشر، بل نحو الوجود كله بما فيه من كائنات.

والشيخ فتح الله كولن طوال الوقت الذي يكتب فيه كتابه يضع في ذهنه مجموعة من الشباب الذين يستهدفهم بكتابته، وهو أحياناً يتوقف عن السياق الأصلي ليحدث هؤلاء الشباب ويلفت انتباههم إلى معنى دقيق يريد توصيله إليهم وبهذا يكون الكتاب تاريخاً ودعوة إلى الله في الوقت نفسه. ﷻ

(٤) كاتب في جريدة الأهرام - مصر.





«إن طبيعة محمد ﷺ الدينية تُدهش كل باحث مدقق نزبه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا ﷺ ونخسوه حقّه؛ وإنه يمكن أن يعد من أعظم المحسنين للإنسانية لما قام به من إصلاح في الأخلاق وتطهير في المجتمع.»

مونه، عن كتاب «محمد والقرآن»

## مكانة الرسول ﷺ في نظر النصفين من المستشرقين

أ.د. أحمد عمر هاشم\*

كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قديمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه ﷺ لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه» (رواه البخاري). ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية ﷺ إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم... سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آدِبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهكذا نرى شهادة هرقل وكيف وصل إلى الحق وإلى هذه النتيجة وإلى الحقيقة من أقرب الطرق، وهي طريق يمكن أن يسلكها كل باحث عن الحق. وها هو أبو عبيد أخرج في كتابه «الأموال» من مرسل عمر بن إسحاق قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه فقال رسول الله ﷺ: «أما هؤلاء فممزقون وأما هؤلاء فستكون لهم بقية». وتلك نهاية كل من يسيء إلى رسول الله ﷺ.

### شهادات عظماء أوروبا

وكم في التاريخ القديم والمعاصر من نماذج عديدة لشخصيات كبرى لهم قدرهم الفكري والاجتماعي، اعتنقوا الإسلام وعرفوا

إن مكانة الرسول ﷺ لا تحتاج إلى بيان ولا إلى شهادة من أحد، بعد أن شهد له الواحد الأحد ﷻ حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الفلق: ٤).

وأتمنّى الله على المؤمنين بعثته التي فاقت سائر النعم حيث قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وأمر الله تعالى أن يأخذ الناس ما آتاهم به الرسول ﷺ وأن يتتبعوا عما نهاهم عنه حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وتكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، وتكفل سبحانه بحفظ كل صحيح من السنة النبوية المطهرة ليكون بياناً للقرآن الكريم فقال الله تعالى: ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا نَبَأَهُ﴾ (النجم: ١٧-١٩). وأعلن رب العزة سبحانه أنه تكفل بحفظ هذا الدين وإتمامه وإظهاره على الدين كله مهما حاربه أعداؤه، ومهما حاولوا إطفاء نوره، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).

### شهادة هرقل عظيم الروم

ولقد شهد بعظمة أشرف خلق الله هرقل عظيم الروم، بعد أن كَوّن المعلومات عن رسول الله ﷺ وعن أتباعه ودينه، واستنتج من خلال الأسئلة والأجوبة التي أحرأها مع أبي سفيان ومن معه عن طريق الترجمان، وتيقن هرقل بأنه رسول حقاً، قال: «فإن

أن الرسول ﷺ هو الحق ودينه هو الحق، فلم يسيئوا إليه بل إنهم شهدوا له واعترفوا بفضلته وعظمته. وإليك أيها القارئ العزيز بعض نماذج من غير المسلمين ومن المستشرقين المصنفين:

ها هو ذا «ليونارد» قال: «إن محمداً ﷺ أعظم البشرية قاطبة، وأصدق إنسان وجد على وجه الأرض منذ بدء الخليقة». نعم إنه أعظم البشرية، في رسالته العالمية التي حملت الرحمة للعالمين، وفيما جاء به من تعاليم أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، ومن العسف والظلم إلى نور العدالة والحق.

وها هو ذا «جورج برنارد شو» يقول: «كنتُ على الدوام أنزل ديانة محمد ﷺ منسلة كبيرة من الإعزاز والإكبار لعظمته التي لا تُنكر، إني أعتقد أن دين محمد ﷺ هو الدين الوحيد الذي يتناسب كل إنسان ويصلح لكل زمان، ويتمشى مع كل بيئة في هذا العالم، في كل مرحلة من الحياة. وإني أتنبأ بأن دين محمد سيلقى القبول في أوروبا غداً، كما يلقاه فيها الآن».

وها هو «لامارتين» الكاتب الفرنسي والمؤرخ المصنف قال: «وإذا أردنا أن نبحث عن إنسان عظيم نتحقق فيه جميع صفات العظمة الإنسانية، فلن نجد أمامنا سوى محمد الكامل». وفي هذا القول ما يوضح وصول هذا الكاتب إلى الحق والإنصاف بأن رسول الله ﷺ جمع كل صفات العظمة الإنسانية.

وها هو «ألفرد مارتين» في كتابه «أكثر زعماء الدين في الشرق» يقول: «والحق أنَّ عمداً بما قام به من الإصلاحات والتشريعات، وما نشره من المذنية الإسلامية والخضارة الرائعة والنظم الاجتماعية، قد أدى أكثر خدمة إنسانية

للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها».

### حاجة العالم إلى رسالة محمد ﷺ

والناظر إلى هذه الشهادات وإلى آراء المستشرقين المصنفين يرى أن العالم كان في حاجة إلى هذا النبي العظيم الذي نشر النور والهدى، وأسس أعظم حضارة بناءة نعت الإنسانية وقامت على العدل والإنصاف وعلى الحق، وحماية حقوق الإنسان وحياتها. أتليقُ بأحد مشنُ جهل قدر هذا النبي العظيم أن يتناول عليه أو أن يسيء إلى مقامه العظيم الذي رفعه الله سبحانه وتعالى إليه؟!

إن الذين أساءوا بالرسوم الآتمة ارتكبوا أكبر خطيئة في حق الأديان والشرائع والثواب والرسول أجمعين. وأصبح من الضروري على النظام العالمي أن يُنزل أقسى عقوبة عاجلة وسريعة بالمتعدين حتى لا تتكرر إساءتهم بعد ذلك. وإن استصدار قانون دولي يُنزل عليهم وعلى كل من يعتدي على أي رسول من رسل الله العقوبة من الأمور الواجبة التي يجب على النظام العالمي أن يبادر بها إحقاقاً للحق وصيانة لحقوق الرسل والشرائع، واثقاً لفنٍ طائفة نحن في حل منها.

وعلى أمتنا الإسلامية في كل مكان أن تكون على مستوى المسؤولية، فطبق تعاليم هذا الرسول العظيم وتقتدي به وتأسى بسلوكه، وأن توحد صفوفها وتجمع كلمتها، وتصور عقيدتها وهويتها، وألا ترد على عبث الأتمين بأساليب كاساليهم فلا تحرق ولا تهدم ولا تعتدي، لأن من تعاليم نبي الرحمة حتى في الجهاد ألا يُحرق الزرع وألا يُهدم البناء وألا يقتل الطفل أو المرأة أو الشيخ الكبير... لأن رسولنا ﷺ

رحمة الله للعالمين. ﷻ

(\*) رئيس جامعة الأزهر السابق -مصر.

«فلو أني أعلم أني أحلُص إليه ﷺ لتحشمتُ لقاءه ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه»

(هرقل عظيم الروم، رواه البخاري في صحيحه)



مفتاح الكعبة للمطمة  
متحف طرب قاي - إسطنبول

# طَبِيبٌ



أ.د. حسن الأمrani

طَبِيبُ الْجَوَانِحِ طَبِيبُ الزَّهْرَاءِ  
ورقاء أَرْقَهَا الْخَيْنُ فَأَفْصَحَتْ  
ورقاء رَقَّتْ صَبُوةٌ فَتَرَقَّتْ  
فَرَقَّتْ فَقَدْ طَرَقَتْ حَبَاضاً زَانِهَاً  
هِيَ نَفْسِي الْتَكَلَّى وَكَمْ أَتَقَلَّبْتُهَا  
حَتَّى تَدَارَكَ ضَعْفُهَا مِنْ فَضْلِهِ  
رَبِّ كَرِيمٍ لَيْسَ تَأْخُذُهُ، إِذَا  
فَأَفَاضَ نَعْمَتَهُ عَلَيْهِ فَأَصْبَحْتُ  
مَا شَاقَّهَا إِلَّا تَوَهَّجَ بَارِقُ  
«هِيَ طَبِيبَةُ طَابَتْ» وَطَابَ بِهَا الْهُوَى  
فَإِذَا شَكُوْتُ مَوَاجِعِي فَلَرَبِّمَا  
أَخْتَاهُ يَا بِنْتَ الْمَكَارِمِ أَقْبَلِي  
إِنْ كَانَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِقَاؤُنَا  
أَوْ كَانَ يَجْمَعُنَا الْحَبِيبُ عَلَى الْهُوَى  
أَعْلَى ثَرَاهَا سَارَ أَكْرَمُ مَوْسِلٍ؟  
حُبٌّ وَمَكْرَمَةٌ وَاحْسَانٌ، بِهِ  
الْأَصْفِيَاءُ هُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْهُوَى  
نَحْنُ الْمَسَاكِينُ أَزْدَهَتْ تَبَجَّافُهمُ  
وَالْحُبُّ زَادَ الْعَارِفِينَ وَأُنْسُهمُ  
يَكْفِيهِ مِنْهُ أَنْ يَقْبِضَ وَيَزْدَهِي  
«هَذَا الْأَنْثَمُ يَحْبِبُنَا وَنَحْبُهُ»  
يَا طَبِيبَ «طَبِيبَةُ» أَنْتَ وَرَدَّ طَبِيبٌ

فَصَبَّتْ إِلَى أَقْيَانِهَا الْوَرَقَاءُ  
وَالْعَشَقُ كَمْ يَشْقَى بِهِ الْقَصَاءُ  
فَرَأَى عِلَافَهُ مِنَ الْوَفَاءِ صَفَاءُ  
مِنْ نَوْرِ أَحَدٍ صَيَّبَ مَعْطَاءُ  
بِالذَّبِّ وَهُوَ إِلَى الْجَحِيمِ رِشَاءُ  
مَنْ أَمَرَهُ التَّكْوِينُ وَالْإِنْشَاءُ  
نَامَ الْوَرَى، سِنَّةٌ وَلَا إِغْفَاءُ  
تَسْقِيهِ بِحَسْبِهَا يَدُ غَرَاءُ  
تَفَتَّرَ عَنْهُ الْقَبْصَةُ الْخَضْرَاءُ  
حَقَّ الْهُوَاءُ يَطِيبُ فَهُوَ رُخَاءُ  
أَضْحَى الشُّكَاةُ تَبَيَّلَ وَدَعَاءُ  
مَرْهُوَةٌ بِالْعَشَقِ فَهُوَ ضِيَاءُ  
مَا يَصْنَعُ الْعَذَالُ وَالرُّقْبَاءُ؟  
فَلَقَدْ يَطِيبُ عَلَى الْبَعَادِ لِقَاءُ  
هَذَا التَّرَابُ مِنَ الصَّفَاءِ سَمَاءُ  
يَتَنَعَّمُ الْفُقَرَاءُ وَالضُّعَفَاءُ  
وَهُمْ يَجْنِبُ الصَّفَّةَ اسْتِشْفَاءُ  
بِالْحُبِّ، دَقَّ فَلَفْظُهُ إِعْجَاءُ  
وَشَرَاهِمُ فَهْمُ بِهِ سَعْدَاءُ  
«أَحُدْ» وَتَسْعَدُ بِاسْمِهِ الْبَطْحَاءُ  
لَنْ تَقَاصِرَ دُونَهُ الشُّعْرَاءُ  
مُتَرَقِّقٌ، وَالْعَاشِقُونَ طِبَاءُ

(\*) رئيس تحرير مجلة «المشكاة» - المغرب



عُزَيْرُ أَوْغُور\*

# الطيُّور...

## مَلَحِّنُونَ لَمْ نَحَلِّ أَسْرَارَهُمْ بَعْدُ..

الطائر القدرة على أن يُلَوِّنَ صوته ويَحْمِلُهُ من المعاني المختلفة حين وإن لم تتطابق مع ما هو لدى بني البشر. الطيور تُخرج من مَصْفَارَاتِهَا أصواتاً بسيطة، ثم تقوم بتنوع وتشكيل هذا الصوت باستخدام الفم أي المنقار والقصبة الهوائية واللسان. أما أنواع طيور المحبة فيمكنها إصدار أصوات من مَصْفَارَاتِهَا تبلغ ما بين ٢-٣ كيلو هرتز ترددي، بالإضافة إلى أنه يُمكن إضافة اهتزازات خاصة أخرى إلى هذه الأصوات. هذه العملية تعتمد على النظام الذي تعتمد عليه الإذاعات والمعروف جيداً بنظام (A.M). وأطلق عليه اسم التنظيم الترددي. وما زالت طيور المحبة تحفظه بسر كيفية استخدام هذا النظام الترددي.

كل الطيور تُصدر صوتاً، ولكن ليس كل صوت أغنية، فالغناء خاصة قد أودعها الخالق في مجموعة الطيور الصَّادِحة.

### الرسائل التي تَحْمِلُهَا أصوات الطيور

إن تغاريد كل طائر تحتوي على رسائل كثيرة؛ فمنها رسائل مودة ورسائل تغذية أو دعوة لاجتماع أو إخطار عن مَهْلَكَةٍ أو توضيح منطقة تواجد. إن الطيور لا تستخدم كل هذه الرسائل جملة، ولكن لا بد وأن تستخدم واحدة من تلك الفئات على الأقل. وبعض الطيور رغم ظروف بيئتها المعيشية المختلفة يُمكنها أن تستخدم نفس النداءات. ومع هذا، فإن علماء الطيور (Ornithologist) قد أثبتوا أن الطيور يُمكنها أن تُصدر صوتاً يحمل ما بين ١٥٠-١٠٠ رسالة مختلفة إلى بعضها البعض. وفي محاولة تُعرِّف الآباء والأمهات والصغار على بعضهم البعض قد وُجِدَ أن



تأثير الصوت أقوى من الرؤية. فالديك السرومسي الأَسَم لا يعرف صِغارَه كما أن الدجاجة لا

هل فَكَّرْتَ كيف تكون الطبيعة بدون طيور؟ ما هي المعاني التي تتأتى لك من ألوانها الحيَّة ونغماتها الجميلة؟ وسندع الحديث عن ألوانها الخلابة ونحصر البحث في ذكر أصواتها التي يَنَاطِرُ بها كل إنسان.

### كيف تُصَدِّرُ الطيور الأصوات؟

الطيور لا تملك حَنَجرَةً كذلك التي يملكها الإنسان. بل تملك بدلاً منها ذلك العضو الذي يُسمى مَصْفَراً «سيرنكس - Syrinks». إن المصفر يوجد مُزْدَوِجاً في أعماق صدر الطائر، وفي المكان الذي تنقسم فيه القصبة الهوائية إلى شعبتين. إن العلماء يسعون إلى معرفة الكيفية التي تعمل بها تلك الآلة الموسيقية العجيبة؛ وذلك بوضع كوابل بصرية فَيُورِيَّة في القصبة الهوائية للطيور، ثم يضحون فيها غازي المليوم والأوكسجين. أو يدفعونها إلى التغريد ومنقرها مفتوحة، ويُراقبون ذلك بأشعة إكس وما فوق الأشعة الحمراء.

وبينما هم يستمعون لقطعة من المَصْفَارَات، فإن قطعة أخرى قد تم تهيئتها لتُصدر صوتاً؛ فالطائر يُمكنه أن يُصدر صوتين مختلفين في آن واحد، لدرجة أنه يمكن أن يعمل «دويتو» أي ثنائي مع نفسه؛ فطيور الكاردينال يُمكنها أن تتبادل إغلاقي شُعْبَتِي قصبتها الهوائية، بينما طائر الكناريا يُمكنه أن يقرّد من ناحية ويتنفّس من الأخرى في نفس اللحظة، بينما طيور الزرزور قد خلّقت بشكل يُمكنها من أن تُصدر ثلاثين نوتة موسيقية مختلفة في كل ثانية.

إن تقليد صوت الإنسان أمر صعب للغاية؛ فالبيغاوت وطيور المحبة وطائر الزُفْرَاق كل منها صار ترجماناً لأسماء الله الحسنى مستخدماً تقنيات مختلفة قد أودعها الخالق فيها. فالبيغاوت تختلف عن كثير من الطيور الأخرى، فلها كالإنسان ألسنة غليظة. هذا بالإضافة إلى أن القدرة الإلهية قد منحت هذا

صوتاً جميلاً كذلك الصوت الذي يخرج من فم هذا الطائر». إن هذا الصوت الذي يصدر عن أجسادها الصغيرة لا يُصَدَّق. إن طير الشقراق الأوروبي يُمكنه أن يُعْني أغنية تحتوي على ٧٤٠ نغمة موسيقية في فترة وجيزة تقل عن دقيقة، ويستطيع أن يُغرد بشكل يمكن سماعه من مسافة تزيد عن خمسمائة متر. وإذا ما تم مقارنة مقياس الجسم الإنساني بهذه الطيور، فعلى الإنسان أن يُسمع صوته إلى مسافة تتراوح ما بين ٦-٨ كم. بعض الطيور، عملياً تعزّد دون توقف طوال موسم التكاثر. وطائر الكراز الأصفر الذي يعيش في أوروبا يُكرّر أغنيته أكثر من ٣٠٠٠ مرة يومياً. وأمّا الأَحْمَر؛ ذلك العصفور الأمريكي، الزيتوني اللَّوْن، صاحب العين الحمراء والمغني الجيّد، فلقد تم تسجيل تأديته لأغنيته ٢٢١٩٧ مرة في اليوم.

وبعض طيور الشقراق الصّداحة، يُمكنها حساب بُعد الصوت مُحدّدة النقطة التي تسمع منها هذا الصوت الصادر عن ذكر آخر من نفس النوع، وتقلّ من قُدْرته وفقاً واعتماداً على مصدر الصوت دون النظر إلى حجمه. إن الأبحاث حول طير الشقراق أثبتت أن الإناث ترحح وتفضل الذكور الذين يُعنون أغنية في نسق لحني أكثر تعقيداً.

إن وقت السحر هو أنسب الأوقات لتغريد الطيور في الغابات، لأن السكون والسكينة تشمل المكان. بالإضافة إلى أن الصوت يمكن أن ينتقل في وضوح كامل. ومن ناحية أخرى؛ ففي هذا الوقت يقلّ فيه ظهور الطيور الجارحة. وثالثاً؛ فبالنسبة للطيور الأكلة للديدان والحشرات، فالوقت ليس وقت صيد لعدم ظهور الحشرات المنبهة والمُحدّرة بعد. رابعاً؛ فهذا الوقت من الصباح بالنسبة للكثيرين من إناث الطير هو أنسب شريحة زمنية قبل الرقاد على البيض. وأخيراً؛ فإن هذا أنسب الأوقات لدعوة الذكر لأنثاه لكي تعرد له أحسن الألحان. وعلماء الطيور في أبحاثهم، قد سلّطوا تغاريد تعود إلى أكثر من ٢٠٠ نوع من أنواع الطيور وحُدّدوا الفوارق فيما بينها. فالطيور تصدح بتغاريدها مشتركة تعود إلى كل نوع من أنواعها وألحانها تقوي العلاقات الاجتماعية فيما بينها. هذه الحادثة أكثر وضوحاً بين الطيور غير المهاجرة، وهذه الطيور لها فحاجتها المحلية الخاصة بها.

بعض الطيور تترجم بتغاريدها بسيطة، والبعض يتغنى بترانيم أكثر تركيبياً. فمثلاً أنواع مثل الإيسينوز يمكنها بصفة عامة أن تعزّد بخمسة ألحان مختلفة. والذكور الذين يحصلون مبكراً على رفيقات هم في موسم التكاثر، فهم يعنون بأغاني أكثر تركيبياً.



يُستطيع أن يتعرف على كتابته أو أفراده الصامتة.

وفي المقابل أنواع الطيور البلدية أنواع تتكاثر بشكل حاليات أو تجمعات كبيرة، أو تجمعات مهاجرة؛ وفي المناطق التي تبني فيها أعشاشها تحيى وتمضي آلاف الطيور، وعلى الرغم من هذا الوسط والمناخ الضوضائي، فإن هذا الطائر يتعرف على أليفه من بين الآلاف من نفس جنسه فور أن يسمع تغريده في واحد على عشرة من الثانية من تغاريده. وفقاً للأبحاث التي تَمَّتْ فُلدَى أفراد أنواع الطيور التي تتكاثر وتعيش في شكل مستعمرات أو تجمعات مهاجرة فإن الصغار يمكنها أن تتعرف على أبويها بالصوت فقط. فإله سبحانه وتعالى كما خلق سماتها وأشكالها مختلفة، فإنه كذلك قد خلق أصواتها مختلفة ومتنوعة كدليل على قدرته. وهكذا قد أعطى الخالق دَوْرًا للأصوات في تنظيم حياة الإنسان وحياة المخلوقات ذوات الروح أيضاً.

إن الطيور منذ المراحل المبكرة جداً من حياتها، حتى قبل أن تخرج من البيضة قد تم تجهيزها بالقدر على إمكانية استخدام أصواتها؛ فمثلاً أفراس طائر الشّمان تبدأ التخابر مع أمهاتها ومع بعضها البعض وهي ما زالت داخل البيضة. لهذا السبب؛ فإن الصغار تخرج من البيضة في وقت مُتّزامن. وفرخ البجع يُمكنه أن يُعْلِم أو يُشعر أمّه إن كان داخل البيضة بارداً أو حاراً.

### أغاني الطيور

إن كل أغنية من أغاني الطيور ذات لحن خاص بها. ولكل الموجودات أَلْسَنٌ يذكرون الله بها. وهذه اللغة أوضح ما تكون لدى الطيور. ويَتِمُّنا الطيور تُودّي أذكارتها من ناحية، فهي تُقدّم ترانيم الانشراح لبني البشر من ناحية أخرى.

إن أشهر الطيور المعرّدة من العذليب. ولقد قيل في حق هذا الطائر «ليس في العالم أي آلة موسيقية قط، يمكنها أن تعرف

## طُرُق أُخْرَى لإصدار الصوت



أن تغرد عقب ميلادها أينما تكون دون أن تتلقى أي تدريب أو تعليم. والبعض الآخر، يمكنه أن يتعلم بعض الأشياء من أغاني نفس جنسه ومن تغاريد الأجناس الأخرى. وعلى سبيل المثال؛ فإن طائر الزرزور، يُمكنه أن يُغري أغانيه وترايمه الخاصة بتقليد صغير طيور السواحل وأصوات الطيور التي تصدح في محيطه، بل حتى يمكنه أن يقلد الأصوات الميكانيكية.

### حاسة السمع عند الطيور

فلكي تستطيع الطيور أن تُصدر صوتاً، لا بد أن تصل إلى معنى ما تسمعه. ولكن الطيور لا تمتلك صَوْتاً لأذنيها على شكل يمكن أن يُرى من الخارج. ولقد مُنحت الطيور ميكانيزم سبعة تختلف عما هو لدى الإنسان. فالطيور تستطيع أن تذكر الصوت ومصدره. الطيور لا تُخطئ في تلقيها الطنين أو الرنين، فلديها القدرة على أن تكشف النغمات القصيرة التي لا يمكن أن يكتشفها الإنسان. معنى ذلك أن الزمن الذي يستغرقه الإنسان في تمييز نغمة ماء، يمكن للطيور أن تميز فيه عشر نغمات. كما أن الطيور تستطيع أن تسمع أصواتاً أدق وأرق من تلك التي يسمعها بنو البشر.

كُون أن المحلوقات كلها قد سُحِّرت لخدمة الإنسان بشكل مباشر أو غير مباشرة، فالطيور أيضاً قد خُلِّقت لكي تقوم بوظائف مهمة من أجل البشرية. لقد أُنيطت بالطيور أدوار مهمة في تأمين التوازن البيئي في عالمنا. ومن ناحية أخرى، فلقد استخدم طير الحمام بخاصة في التحارير والمراسلة في فترات زمنية لم تكن الاتصالات قد أُحرِيت بتقنياتها المعاصرة. وإن تعليم سيدنا سليمان عليه السلام «لغة الطير» و «منطقه» وكونه قد استفاد من الطيور، لَمَّا بلغت النظر ويضع هدفاً أمام الإنسانية. فإذا ما تمت دراسات وأبحاث حادة، فلرما تمكنت الإنسانية ذات يوم من الاستفادة من الطيور في المجالات المختلفة. <sup>١٤</sup>

(١٤) كتاب وبحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطروري.

إن بعض الطيور تُصدر صوتاً بضرب مخالبها في الأرض، أو أحنحتها كما هو الحال في الطيور البحرية ذات الأجنحة الطويلة؛ فمثلاً طيور القادوس البحرية تُصدر أصواتها بفتح وغلق مناقرها. بالإضافة إلى أن الطيور يمكن أن تستخدم أحنحتها من أجل إصدار الصوت؛ فمثلاً طيور نوع الحجل تفتح أحنحتها بشكل جماعي وتغلقها مصدرة أصواتاً، وتبرز بعض ريشها الذي خُلق مُمَيَّزاً لها، كما يمكن أن تصدر عنها ارتعاشات وذبذبات محدثة صوتاً. كذلك يمكن أن تضرب مثلاً باليَجَع (أي الإوز العراقي) على الطيور الصامتة التي لا تُصدر صوتاً إلا بأحنحتها؛ كما أن كل نوع من أنواع الطيور النقارة الخشب، تُقرُّ الأشجار بضربات مختلفة عن بعضها البعض. وهكذا، وبينما هي تنقر الأشجار فإن الذكر والأنثى من هذه الطيور يتعرفون على بعضهم البعض من هذه الأصوات بسهولة ويُسر.

### كيف تتعلم الطيور الأناح؟

عندما تم دراسة أغاني الطيور، اتضح أنها تُصدر عمارة كبيرة تلك الأصوات والنغمات التي لا يمكن إصدارها بالآلات الموسيقية. وأثبتت الأبحاث أن قسماً من النغمات الغنائية قد مُنحت للطيور منذ الخلق، وأن قسماً تعلمته من الطيور التي تعيش معها في نفس البيئة. فطائر الإسبنوز والعصفور ذو العرف الأبيض -حتى وإن تم تربيتها في بيئة مختلفة عن بيئتها الطبيعية- قد لوحظ أنها أتتحت نفس التغاريد الخاصة بنوعها. ولكن هذه التغاريد عند مقابلتها ومقارنتها بالتغاريد ذات القالب الحشن والغريب، فقد اتضح أن بينهما فرقاً كبيراً. والعلماء على إيمان راسخ بأن إبداع الطيور وجعلها تغرد تغاريدها هي فطرة كامنة فيها. هذه الطاقة الكامنة التي منحها الله للطيور قد تم تدعيمها بشكل مطوّر بإسماعها لأفراد هذا النوع الكاملة النمو وتدريبها عليها.

وبعض أنواع الطيور يمكن أن تمر بمراحل تعليمية مختلفة. فهذه الأنواع؛ بينما لم يكن في إمكانها إصدار ترايمها وتغاريدها بشكل جيد في الأيام التي أعقبت ميلادها، فبعد تدريبها لعدة أسابيع فإنها تغرد بشكل أفضل. ويُطلق على تغاريدها التي بدأت بها في أول الأمر تغاريد لدائنية (أي بلاستيكية). هذه التغاريد للدائنية تُشكل الأساس للأغاني والتغاريد التي تشدو بها في مراحل النضج والنمو الكامل. وهناك فوارق كبيرة بين الأنواع المختلفة للطيور؛ فبعضها يمتلك قلب غنائية قوية مُنحت لإياها منذ الخلق، ويمكنها





## فصل المقال

فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال

### عند الحكيم بديع الزمان

أ.د. طه عبد الرحمن \*

نكون بذلك أقرب إلى فهم هذا الموقف مما لو نحن شَبَّع في ذلك طريقاً غيرَه من طرق العرض والإيضاح والتحليل المعلومة؛ وليس هذا الطريق المفضل لدى بديع الزمان إلا طريق التمثيل والتشبيه؛ فلنوضح إذن موقفه من هذه العلاقة بتشبيه تمثيلي مخصوص نتأوله ونتعرف من خلاله على الصفات التي يتميز بها هذا الموقف؛ وليكن هذا التشبيه كالتالي:

فكما أن «كوبرنيك» أحدث انقلاباً في تصور العلاقة بين الأرض والشمس،<sup>(١)</sup> فكذلك بديع الزمان أحدث انقلاباً في تصور العلاقة بين الفلسفة والحكمة، أو قل على جهة التشبيه، بين أروض الفلسفة وشمس الحكمة؛ غير أن هذا الانقلاب الجديد أخذ مساراً معاكساً لانقلاب فكري آخر بُعث هو أيضاً بكونه «كوبرنيكياً»، وهو بالذات الانقلاب الذي أحدثه «كانط» في تصور العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف؛<sup>(٢)</sup> فبتعين إذن أن نخدّد خصوصية انقلاب بديع الزمان - هذه الخصوصية التي تميّزت له معها الصفة «الكوبرنيكية» وتتفنى عنه الصفة «الكانطية» - كما بتعين تحديد نوع الإنسان الذي يتولد من هذا الانقلاب الفكري الجديد.

ومعلوم أن مفهوم «الانقلاب» أحص من مفهوم «التغيير»، إذ هو تغيير الشيء إلى ضده أو نقيضه، بحيث يكون الموقف من العلاقة بين الفلسفة والحكمة الذي انقلب إليه بديع الزمان مضاداً للموقف الذي انقلب منه؛ فلنتنظر الآن في هذا الموقف المنقلب منه، حتى تبين قدر التحول الذي سوف يطأ على فكر صاحبه.

١. بديع الزمان الفيلسوف والوصل بين الفلسفة والحكمة  
يقر بديع الزمان بأنه اشغلت بالفلسفة مدة وتعلق بها تعلقه بالعلوم العقلية كما اشغلت وتعلق بها غيره من المفكرين؛<sup>(٣)</sup> بحيث يصح أن تُعد هذه الفترة من حياته الفكرية فترة تفلسف صريح جعله يتخذ من العلاقة بين الفلسفة والحكمة نفس الموقف الذي اتخذته فلاسفة الإسلام من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن

ن يستهل هذا البحث بإفخاذ إجراء اصطلاحي أساسي؛ وهو أن نخصص (من الآن فصاعداً) لفظ «الفلسفة» بالدلالة على المعرفة التي وضعها الإنسان من عنده، فنقول: «الفلسفة الإنسانية»، ولا نقول: «الفلسفة القرآنية»، كما نخصص لفظ «الحكمة» بالدلالة على المعرفة التي جاء بها الوحي من عند الله، فنقول: «الحكمة الإلهية»، ولا نقول: «الحكمة الفلسفية» أو «حكمة الفلاسفة»، ولا بالأولى نُطلق اسم «علم الحكمة» على الفلسفة، ولا اسم «الحكمة» على الفلاسفة.<sup>(٤)</sup>

ولا يخفى أن هذا الإجراء الاصطلاحي يضاد كلياً نظيره الذي قام به ابن رشد، فقد حصص كلمة «الحكمة» بإفادة معنى «الفلسفة» في مقابل «الشرعية» كما جاء ذلك في عنوان كتابه المعروف: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال**؛ ومن شأن تخصيص الفلسفة بالحكمة ومقابلتها بالشرعية أن يوهم بأن الحكمة اجتمعت كلها في الفلسفة وأن الشرعية ليس شيء فيها حكمة، بحيث تُرد على هذا الإجراء شبهة التخليط أو التعليل؛ ولا دفع هذه الشبهة إلا بتغيير عنوان هذا الكتاب بأحد الطريقتين: إما الاستبدال أو التقييد؛ والطريق الأول منها يقوم في أن نضع لفظ «الفلسفة» مكان لفظ «الحكمة»، فنقول: **فصل المقال فيما بين الفلسفة والشرعية من الاتصال**، ولا سيما أن المصطلح الذي اختار ابن رشد أن يستعمله في أول كلامه في كتابه هذا هو لفظ «الفلسفة»، وليس لفظ «الحكمة»؛ والطريق الثاني يقوم في أن نخصص طرف الحكمة من طرفي هذه المقابلة بواسطة الإضافة، فنقول: **فصل المقال فيما بين حكمة الفلسفة وحكمة الشرعية من الاتصال** أو نخصصه بواسطة الإسناد، فنقول: **فصل المقال فيما بين الحكمة الفلسفية والحكمة الشرعية من الاتصال**.

وبعد هذا التوضيح الاصطلاحي الضروري، شَبَّع في عرض موقف بديع الزمان من العلاقة بين «الفلسفة» و «الحكمة» الطريق الذي يؤثر هو نفسه اتباعه في بسط أفكاره وآرائه، لأننا



رشد،<sup>(٥)</sup> وهو، على التعيين، موقف الجمع أو الوصل بينهما، بمعنى أن الفلسفة لا تخالف الحكمة، وإنما توافقها. والواقع أننا إذا دققنا النظر في هذا الجمع - أو الوصل - وجدنا أنه يتخذ صورتين اثنتين: إحداهما الصورة التي اشتهر بها الكندي والفارابي وابن سينا؛ والثانية، الصورة التي اشتهر بها أبو سليمان السجستاني وابن رشد؛ فليست الكلام في هاتين الصورتين للوصل بين الفلسفة والحكمة.

١.١. جمع التداخل بين الفلسفة والحكمة: إن الصورة الأولى التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة هو أنه عبارة عن تداخل، بمعنى أن الفلسفة والحكمة تدخل إحداهما في الأخرى، فما تقررته الحكمة تثبته الفلسفة وما تدعيه الفلسفة تؤيده الحكمة، بحيث تنزّلان منزلة الأخوين الشقيقتين؛ ويقوم هذا الوصل التداخلي، حسب ما جاء في نصوص بديع الزمان، على مبدئين أساسيين: أحدهما، مبدأ تأسيس الثقل على العقل؛ ومقتضاه أن النقل يؤوّل على مقتضى العقل متى ظهر تعارضه معه.

والثاني، مبدأ التوصل بالعقل في النقل؛ ومقتضاه أن المفاهيم العقلية تكون وسائط في بيان الحقائق العقلية. وقد عمل بديع الزمان هذين المبدئين في فترة تفلسفه، إذ يخبرنا أنه كان يقيم الحقائق الإسلامية على أدلة عقلية كما هي طريقة الفلاسفة، ودخلاً في مناظرة خصومه وخصوص الإسلام.<sup>(٦)</sup> كما نجد أنه كان يلجأ في توضيح المعاني الإسلامية إلى المفاهيم الفلسفية كشأنه مع معنى «العدل»، إذ لجأ في بيانه إلى نظرية «أفلاطون» في الفضائل الأربع - أي العفة والشجاعة والحكمة والعدل - وأيضاً إلى نظرية «أرسطو» في مفهوم «الفضيلة» باعتبارها وسطاً بين الإفراط والتفريط.<sup>(٧)</sup>

٢.١. جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة: أما الصورة الثانية التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة، فهي أنه عبارة عن تصاحب، بمعنى أن الفلسفة والحكمة، ولو أهما تعبراً عن حقيقة واحدة، تقيمان مستقلتين إحداهما عن الأخرى، إذ تكون لكل واحدة منهما لغتها وجوهرها ومنهجيتها ومقصدتها الخاصة، فتكون العلاقة بينهما علاقة تساوق وتوافق أشبه بتوافق الصديقين؛ والأصل في القول بهذا الوصل التصاحبي هو الاعتقاد بأن الفلسفة تأخذ بمبادئ ثلاثة لا تأخذ بها الحكمة: أحدها، مبدأ الاندهاش؛ ومقتضاه أن فعل التفلسف يتولد من الشعور بالدهشة - أو العجب - إزاء الآثار في النفس أو إزاء الأشياء في الأفق.

والثاني، مبدأ الاستشكال؛ ومقتضاه أن الفيلسوف لا يفتأ يرضع الأسئلة تلو الأخرى، باحثاً عن الأجوبة عنها.

والثالث، مبدأ الاستدلال؛ ومقتضاه أن الفلسفة تستند في إثبات حقائقها إلى الأدلة العقلية التي قد تبلغ أعلى مراتب اليقين. وقد عمل بديع الزمان بهذه المبادئ الثلاثة، هي الأخرى، في فترة تفلسفه، إذ كان يتمتع بقدرة اندهاشية قلّ نظيرها، فلا يرى شيئاً في نفسه أو في أفقه إلا ويرى فيه سرا عجيبياً ينبغي استكناه أمره؛ وأيضاً كانت الأسئلة المصيرية تملك عليه مشاعره وتستحوذ على مداركه، فيشغله طلب الأجوبة عنها طويلاً، معاوداً النظر فيها، إن تصحيحاً أو تعميقاً. ولم يكن بديع الزمان يجد من طريق أسلم في استكناه الأمور التي يندهش لها ولا في الجواب عن الأسئلة التي تهجم عليه إلا طريق البرهان العقلي، لكي تظمن نفسه التي بين جنبيه ويقتنع خصمه الذي بين يديه.

وعلى الجملة، كان بديع الزمان الفيلسوف كغيره من فلاسفة الإسلام يسلم بمبدأ الجمع بين الفلسفة والحكمة، سواء اتخذ هذا الجمع شكل التداخل كما عند الفارابي وابن سينا أو شكل التصاحب كما عند ابن رشد.

## ٢. بديع الزمان الحكيم والفصل بين الفلسفة والحكمة

ها هنا يجب التنبيه على حقيقة أساسية، وهي أن هذا الجمع بين الفلسفة والحكمة، إذا كان النظر العقلي المجرد يتجوز ولا يتحلى، فإن الواقع الحي يكذبه ولا يؤيده؛ ذلك أنه حدثت على مرأى ومسمع من بديع الزمان انقلاب سياسي اجتماعي تصدّع له التاريخ واحترق له المجتمع وصعب له الإنسان؛ ولم يكن هذا الانقلاب السياسي الاجتماعي إلا أثراً من الآثار التي انعكس بها على المجتمعات الغربية الانقلاب الفكري الذي قامت به الفلسفة الحديثة ضد الحكمة الدينية والذي يمثله خير تمثيل فكر الفيلسوف الألماني «كانط».

وكان لا بد لهذا التعارض الغريب بين تجويز العقل للجمع بين الفلسفة والحكمة وتكذيب الواقع المعيش له من أن يشغل بال بديع الزمان طويلاً ويدعوه إلى مراجعة موقفه الفلسفي وبالتالي إلى تجديد النظر فيما تقرر بين فلاسفة الإسلام من أن الفلسفة والحكمة متصلتان اتصال تداخلي كالشقيقتين أو اتصال تصاحب كالصديقتين.

من هنا يبدأ العهد الجديد لبديع الزمان، إذ يتجرد من لباسه الفلسفي القديم ليلبس لباساً جديداً، ألا وهو لباس الحكمة، أو قل ها هنا نشهد موت بديع الزمان الفيلسوف ولادة بديع الزمان الحكيم،<sup>(٨)</sup> ونسوق في هذا المقام نصاً بهذا الشأن لا غبار عليه، وهو التالي:

«راجعت أول ما راجعت تلك العلوم التي اكتسبتها سابقاً أبحث فيها السلوة والرجاء؛ ولكن كنت - وبيا للأسف! - إلى ذلك

الوقت مغترفاً من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظناً مني - ظناً خطأً جداً- أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل وعمور الثقافة وتطور القلب، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوشت روجي كثيراً، بل أصبحت عاقلة أمام سموي المعنوي».

«نعم، بينما كنت في هذه الحالة، إذا تحكمت القرآن المقدسة تستعني، رحمة من العلي القدير، وفضلاً وكراً من عنده سبحانه، فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية، وظهرت روجي منها - كما هو مبين في كثير من الرسائل - إذ كان الظلام الروحي المتيقن من العلوم الفلسفية يغرق روجي ويطمسها في الكائنات، فأیما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا أجد قيساً، ولم أتمكن من التنفس والانفراج حتى جاء نور التوحيد الساطع التابع من القرآن الكريم الذي يلقن «لا إله إلا الله»، فمزق الظلام وبدده، فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان»<sup>(١)</sup>.

ويتخذ هذا التحول الجذري في حياة بدیع الزمان مظهرين اثنين: أحدهما مظهر نقدي والثاني مظهر بنائي.

١،٢. **انقلاب بدیع الزمان ونقد الوصل بين الفلسفة والحكمة:** يتجلى المظهر النقدي لهذا التحول في كون بدیع الزمان اشتغل بنقد الجمع بين الفلسفة والحكمة في صورته الاثنيتين: التناحل والتصاحب نقداً مثلاً؛ نقداً منطقياً ونقداً أخلاقياً ونقداً إشارياً؛ ولا عجب في ذلك، فالحكيم أصلاً لا يكتفي بالنقد المنطقي للآراء كما يكتفي به الفيلسوف، بل يتعداه إلى النقد الأخلاقي لها، لأنه لا ينظر إليها مجردة، وإنما مقترنة بالعمل، فيقومها بحسب أثرها العملي، ثم يرتقي بها درجة، فينظر إليها من جهة قيمتها الجمالية، فيأتي بنقده الإشاري لها.

فلنبداً بتوضيح كيف مارس بدیع الزمان هذا النقد المثلث على الضرب الأول من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التناحلي الذي ينبني، كما تقدم، على مبدئين اثنين هما: «مبدأ تأسيس النقل على العقل» و «مبدأ التوصل بالعقل في النقل».

١،١،٢. **نقد التناخل بين الفلسفة والحكمة**  
أ. **النقد المنطقي:** يرى بدیع الزمان أن مبدأ تأسيس النقل على العقل الذي ينبني عليه جمع التناخل هو عبارة عن ترجيح يعبر مرشح، ذلك لأن العقل ليس أقل من النقل حاجة إلى التأسيس، ولا يمكن أن يكون هذا التأسيس بطريق العقل نفسه متى كان هذا العقل هو «العقل الدائر بين الناس»<sup>(١)</sup> ولم يكن عقلاً من نوع جديد لا عهد للفلسفة به<sup>(٢)</sup> كما أن هذا المبدأ يحمل على تأويل النقل بما يفضي إلى تحريفه، لأن العقل المعلوم ليس له من السعة والتجرد ولا من القدرة على الانطلاق ما يستوجبه فهم هذا النقل.<sup>(٣)</sup>

ويرى بدیع الزمان كذلك أن مبدأ التوصل بمفاهيم العقل في بيان معاني النقل الذي يقوم عليه هذا الضرب الأول من الوصل لا يرفع من شأن النقل، وإنما ينزل به، لأن فيه إيهاماً بأن الأسس العقلية أعمق وأرسخ من الأسس النقلية؛ كما أنه لا يفيد في الظهور على الخصم، لأنه يبقى منحصرًا في دفع الاعتراضات بالطريق العقلي المجرد الذي يأخذ به هذا الخصم، ولا يرقى إلى عرض حقائق النقل بالطريق الذي ينتج فيه العقل بالقلب والذي تقتضيه هذه الحقائق،<sup>(٤)</sup> هذا إن لم يؤد إلى تزييفها تزييفاً كاملاً.<sup>(٥)</sup>

ب. **النقد الأخلاقي:** يؤكد بدیع الزمان أن تعاطي المتفلسف لتأسيس النقل على العقل يصيبه بأمراض قلبية، في مقدمتها مرض الغرور، ذلك لأنه يجعل من عقله الناقص والمحدود معياراً للوحي الذي هو كلام لا حد لكلامه؛<sup>(٦)</sup> كما يؤكد أن التوصل بالمفاهيم الفلسفية - ولا سيما الطبيعية و «الميتافيزيقية» - في مباحث القرآن يفضي بصاحبه إلى تقديس الطبيعة وترك تقديس خالقها.

ج. **النقد الإشاري:** إن مثل الفيلسوف القائل بالتداخل بين الفلسفة والحكمة عند بدیع الزمان كمثل من يسلك طريقاً في جوف الأرض - أي نقفاً - أو من يسأوي إلى كهف،<sup>(٧)</sup> فيكون عبارة عن شبح لا يرى شخصه وإن عرفت عينه وشهد أثره، وينتهي بالهلاك في هذا النفق اختناقاً ولماً يكمل سيره، وتكون منسولة في القرآن - الذي هو معدن الحكمة - منسولة الضال.<sup>(٨)</sup>

من ثم، يصبح الفيلسوفان اللذان ذكرهما بدیع الزمان بالاسم مرات عديدة، وهما الفارابي وابن سينا معدودين عنده في زمرة الضالين،<sup>(٩)</sup> إذ كانا يقولان بالتداخل بين الفلسفة والحكمة، وهو قول أشبه بسفسة التصاري؛ وقد ذهب ابن سينا في العمل بهذا القول إلى أبعد مما ذهب إليه الفارابي؛<sup>(١٠)</sup> ولما كان بدیع الزمان قد أعجب بهما، واعتقد الصحة في رأيهما، فقد كاد هو نفسه أن يحار كما ضلّ لولا أن الله تعالى عليه باسمه «الحكيم»، فأضحي أهدى سبيلاً وأقوم قِيلاً.

وعلى هذا، فإن العمل بمبدأ تداخل الفلسفة والحكمة ينتج إنساناً رقيق الإيمان ضعيف الحجّة متعلقاً بالظاهر مغترّاً بنفسه وتائها عن طريقه.

ولنعطف الآن على الضرب الثاني من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التصاحبي، فبين كيف مارس عليه بدیع الزمان هذا النقد المثلث، مع العلم بأن هذا الضرب يقوم على مبادئ ثلاثة هي: «مبدأ الاندهاش» و «مبدأ الاستشكال» و «مبدأ الاستدلال».

(٥) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس - المغرب.

المواضيع:

(١) الشاهد على أن بديع الزمان يميل إلى مثل هذا التخصيص تقييده في أكثر من موضع اسم «الفلسفة» بوصف «البشرية» كما في قوله: «إن سعيدا القدم والفكرين قد ترقصوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية»، **المكتوبات**، ص ٥٦٩؛ وأيضا حرجه على الإشارة إلى أن إطلاق لفظ «الحكمة» على الفلسفة هو من عمل غرير - أي الفلاسفة - كما جاء ذلك في قوله: «أما ما يسمونه بعلم الحكمة، وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجدات وطلت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة»، **الكلمات**، ص ١٤٣؛ مما يشعر بأن ورود هذا الإطلاق في تعبوسه هو من باب التساهل في الاستعمال وتجارة الغير، لا من باب صحة هذا الاستعمال أو الإقناع به. (نشير هنا إلى أن تسويد الكلمات في النصوص المنقولة هو من غلغلة).

(٢) «فيولايوس كوبرنيك» فلكي بولوني (١٤٧٣-١٥٤٣)، اشتهر بمرسته على دوران الأرض على نفسها وحول الشمس، مبتلا بذلك الرأي القديم الذي يجعل الأرض ثابتة والشمس دالية الدوران حولها.

(٣) «لئانويل كانت» فيلسوف ألماني (١٧٢٤-١٨٠٤)، أثبت دور الذات الناعل في تشكيل المعرفة الإنسانية، مفندا بذلك النظرية القديمة التي تجعل للموضوع الدور الفاعل في تشكيل هذه المعرفة.

(٤) يقول: «كان سعيد القدم - قبل حوالي خمسين سنة - لزيادة اشتغال بالعلوم العقلية والفلسفية يجرى مسلكا ومدخلا للوصول إلى حقيقة الحقائق، داحلا في عداد الحاسمين بين الطريقة والحقيقة»، **المتوي العربي التوري**، ص ٢٩٩؛ انظر أيضا **المكتوبات**، ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٥) للملاحظ أن بديع الزمان لا يذكر الكندي كما يبدو أنه لم يذكر فيلسوف للمغرب ابن رشد إلا قليلا حداً، قد لا يعدي ذلك الترتين: **المكتوبات**، ص ٢٤٩؛ وأيضا **الشعاعات**، ص ٦٦٣.

(٦) يقول: «لما كان اشتغال سعيد القدم بعلمي الحكمة [أي الفلسفة] والحقيقة [أي التصوف] ويتناظر عظام العلماء وانجتهم في أدق المسائل وأعظمها [...] قد لا يترك قسم منها أي من ترقياته الفكرية وفروضاته [قلبية] - بعد جهد جهيد - إلا لراسخون في العلم»، **المتوي العربي التوري**، ص ٣٢٢.

(٧) **إشارات الإعجاز**، ص ٢٣-٢٣.

(٨) يعتبر بديع الزمان هذه الولادة الجديدة بمثابة قبل لاسم «الحكيم» من أسماء الله عليه، إذ يقول: «كانتكم أعزكم هذا الذي لا يعد شيئا بذكر، وهو لا شيء، قد وهب له وضع يجعله يحظى باسم الله (الرحيم) واسم الله (الحكيم) من الأسماء الحسنى. وذلك أثناء ما يكون مستحضاً لخدمة القرآن فحسب، وسجما يكون مناهيا لتلك الحرية العظمى التي لا تنتهي عتباتها [...] فحسب «الكلمات» إنما هي جلوات تلك المحظوة نرجو من الله تعالى أن تكون نافلة لضمون الآية الكريمة «ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا»، **المكتوبات**، ص ٢٣-٢٤؛ كما أنه يؤرخ لهذه الولادة نرجوا صادقة وأما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قائلا: «رأيت نفسي تحت جبل أراوات، وإذا بالجبل ينفلق انفلاقا هائلا - فينفذ مسجورا عظيمة كالجبال إلى أعماق الأرض كافة، وأنا في هذه الرهبة التي عشتي رأيت والدي - رحمة الله عليا - يترقي، قلت لها: «لا تخافي يا أمي! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم»، نفس المصدر، ص ٢٧٥؛ وفي كلامه عن «الطلي» و«الجبل» (إشارة خيالية إلى قصة موسى عليه السلام، إذ سأل ربه الرؤية القدسية، فـ«نَجَّى ربه لِمَجَلِّ حَمَلَهُ ذُكَا وَخَرَّ مُوسَى صَعَقًا» [الأعراف: ١٤٣]).

(٩) **المسعد**، ص ٣٦٦-٣٦٨؛ ويقول أيضا في موضع سابق: «عنا كما من الفلسفة الجيدة» إلا التيام بـ**تخصيص فكره** والعمل على **نفضه من أدران** الفلسفة المزعقة واورثات الحضارة السلفية»، نفس المصدر، ص ١٧٦.

(١٠) جاء هذا الوصف في قوله: «وشاهدت الشئن كالجبال المتدلية من السماء، من استمكك ولو بجري استمعد واستمعد، ورأيت من حالها واعتمد على العقل الدائر بين الناس كمن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتمسك كما تمسك فرعون بسوطه» **فَرَعُونُ يَا فَاتِنُ أَنْ لِي صِرَاحًا** [غافر: ٣٦]، **المتوي العربي التوري**، ص ١٦٥.

(١١) إذ يقول: «من الأصول المقررة أنه إذا تعارض العقل والنقل، يعد العقل أصلا ويؤول النقل، ولكن ينبغي للملك أن يكون **عقل حقا**، **صحيح الإسلام**، ص ٢٩؛ ويقول أيضا في موضع آخر: «إذا تعارض العقل والنقل، يكون الاعتبار للعقل والنقل، ولكن يجب أن يكون **هذا العقل عقلا**».

(١٢) يقول: «اعلم أيها المتفلسف المرح للعقل على النقل، فتوّل النقل، بل تحرف؛ إذ لم يسمع عتلك المنسج بالغرور والتغلغل في الفاسيات [...] **فعلقت عقلك** وبالنقل **تفلكت**»، **المتوي العربي التوري**، ص ١٩٠.

(١٣) يقول: «ولمّا، لا يتكلمون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعمون شجرة الإسلام بأخصان الحكمة التي يطونها عمية الجور، وكأنهم هذا يقولون الإسلام؛ ولكن لما كان الظهور على الأعداء هذا النمط من العمل قليلا، ولأن فيه شيئا من النهرين لشأن الإسلام، فقد تركت ذلك المسلك وأظهرت فعلا أن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعين أسس الفلسفة، بل تظل سطحية بجاهها...»، **المكتوبات**، ص ٥٦٩-٥٧٠؛ ويقول أيضا: «فلا تجعل مقاييس العلوم الإنسانية **مخك**ا لحقاقتها [أي القرآن] والمسئل عليه القرآن، ولا ترغما **بمزاجها** [...] ولا تطالب بركبتها كما تجعل دساتيرها الأرضية مصداقا على تلك التواشيس السلفية»، **المتوي العربي التوري**، ص ٣٤٨.

(١٤) **صيفيل الإسلام**، ص ٣٥-٣٦.

(١٥) يقول: «فما أجعل من اغفر بالننون الفلسفية وصيرها محكا لمباحث القرآن التبدية»، **المتوي العربي التوري**، ص ١٧٧؛ ويقول في موضع آخر: «قد شاهدت ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي؛ فالأمراض المعنوية تصل إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولد أمراضا قلبية»، نفس المصدر، ص ١٥٨.

(١٦) انظر كيف أن لرمز «الكهف» عند بديع الزمان الحكيم متولوا هو عكس متلول «المغارة» عند «أفلاطون» ومعلول «الفقير» عند «ديكارت»؛ فالتنازل في المغارة عند «أفلاطون» هو الإنسان الجاهل الذي لا يعرف من الأشياء إلا ظاهرا في مقابل الفيلسوف الذي يعرف أعماق الأشياء ذاتها (محاورة **الجمهوري**، الكتاب السابع)، وهو عند «ديكارت» الإنسان الأعلى الذي يعيش في الظلام الدامس في مقابل الفيلسوف الذي يعيش في النور الساطع (**مقال في المنهج**، الجزء السادس)، بينما هو عند بديع الزمان الإنسان الفيلسوف نفسه، هذا الذي يتعلم «أفلاطون» العارف حق ويعلمه «ديكارت» البصير بحق.

(١٧) يقول: «وهكذا، فطريق الأول هو طريق **الضالين** المشار إليه بـ«الضالين» وهو مسلك الذين زلوا إلى مفهوم «الطبيعة» وتبثوا أفكار الطبيعةيين...»، **الكلمات**، ص ٦٥٠؛ ويقول «ولا الضالين» فالمراد منه: الذين ضلوا عن الطريق بسبب غلبة الوهم والخرى على العقل والوجدان. إشارة الإعجاز للتروسي، ص ٣٦.

(١٨) يقول: «إن تلك الأرض هي «الفلسفة الطبيعية». أما البقى فهو المسلك الذي شفه أهل الفلسفة بأفكارهم ليلوغ الحقيقة؛ أما آثار الأقدام التي رأيتها فهي لمشاهير الفلاسفة كأفلاطون وأرسطو؛ وما سمعته من أصوات هو أصوات **الدهاة كابين سينا والفارابي**... نعم تمت أجد أقوالا لابن سينا وقوانين له في عدد من الأمكن، ولكن كانت الأصوات تنقطع كليا، بمعنى أنه لم يستطع أن يقدم، أي أنه احتجني»، **الكلمات**، ص ٦٤٨.

(١٩) **إشارات الإعجاز**، ص ٣٦٦.

# عقالها الحب

نبيلة الخطيب \*

ذكر الرسول ﷺ ففاضت عيناه، فكانت هذه القصيدة من وحي تلك الدموع:

فاضت وحلت جماراً في مآقيها  
واهتزت الروح للذكرى وطار بها  
يا للقلوب التي رقت مُحَنَّة  
كنا عرجنا فعرجنا معاً رهفاً  
يا سيّد الوجد كم داريت زفرته  
تغر له النفس والأيام تُرهقه  
تحن؟ كُلُّ به شوق بهم به  
ألتقي بحبيب الروح ذات ضحى  
يا داعم الطرف لو أن الدنا جُمعت  
وهيئت لك فيها كلُّ محبتها  
كلُّ الجنان التي في الوهم مُقفرة  
ما للمحب، إذا هاجت لواعجه،  
دنت فكانت هي الدنيا، ودُيْدُنْها  
عُفافة فيضها حتى إذا عُمِرت  
لجأها الموت لا يذري عباها  
نمنا لحج الأمواج لافظة  
هي التاريج تيرنا وما برحت  
كمن يغض على رملٍ يُقلّته  
نستوضح الفجر لكن أين شُقلّته  
يا مَعَلِ الحزن كلفكف بعضه جلدأ  
هي الحياة حروناً عرقها نزق  
تُصغي لمسك حين الكون في صخب  
عقالها الحب والأيام شاردة  
فكلما شفها شوق وسربلها

والشوق يسترقد الأعصاب يُدكيها  
فيض من النور يرويهما ويُظميها  
أهكذا الوجد يدميها ويرقيها  
على أمانٍ ودُنها في معانيها  
أني إذا ذكر المحبوب تُخفيها  
يميتها البُعد والآمال تُحييها  
في آخر الليل آيات يُصلّيها  
هناك في غرفٍ رقت حواشيها  
وأدغمت سنواتٍ في ثوانيهما  
لكنت أزهد من آلت طم فيها  
وجنة الروح تزهر في معاليها  
وهذه الأرض، حين الخلل يُخلّيها؟!  
تُدني وتُتي من دأنا لها، تيهها  
عفت وليس التعافي من تعافيهما  
إلا إذا أملت للضمّت شاديها  
من كان في حجرها عمراً يُجاريها  
تطارح الصبر فيها إذ تُداريها  
والريح تذرّوه رملأ في بَرايها  
وقد طغى الوقت زحفاً في لياليها  
وأغرق بما شئت إن هاجت قوافيها  
فكن إذا حرّنت بالجلم حاديها  
والصُخو يصدح ودفاً في نواصيها  
والدهر يقبض أرساناً ويُريها  
وخذ تناثر ماسٍ في مآقيها. ❦

(٢) شعرة: أُنْثَى - الأثر: أثر.

# المتاهة

جمال أمين \*



والدسائس والنعرات العصبية الآكلة. حاول جاهدا منعها.. صدها.. تفتيتها.. وقد لبسته روح تيار هادر.. واعد.. واعد، يروي ضفاف جغرافية الإسلام الممتدة من الماء إلى الماء أزيد من ثلاثين سنة.. أنداء مرعة تنث ووحا وربحانا، أمنا وأمانا. لكن رحي التاريخ تدور.. عجلاته غالبة.. الناس يظنونهم منعما في قصوره.. يتعصر اللذائذ.. يكتسز الأصفر الرنان والأحمر الفتان.. لكم غمي لنعم براحة البال في كوخ بسيط منسج في أعالي جبال «أرارات»، أو في زاوية من زوايا شيخه الروحي «أبي الشامات».. لكنه النداء المقدس.

أفلنت دمة حرى من وجهه التاريخي.. تختزن في ملحوتها وحرارتها كل مواجع الدولة المنهارة والحكم الغابر، لم يصبرها الضابط «مراد بك».. دعاه للجلوس.. تحاورا.. حاول السلطان استتاله من إحساسه المادي الضابط.. بسط له من الحجج ما يقنع الواجب الجهادي المقدس.. الدولة المتداعية.. المسلمون المستضعفون.. الأطماع الغربية.. أمجاد التاريخ العثماني.. أحلام عميد الفاتح.. عراقة الجيش العثماني.. قوته الضاربة.. الشهادة.. الجنة.. الخلد.. كلمات وكلمات تفور كالأمواج الدافقة، لكن الأرض السبخة ترفضها.. تعافها.. تبتخرها بفعل وهج الشواظ الحارق، كان الضابط يعدّ الدقائق للانعاق من قيد الخدمة المتعبة، كلمات السلطان لم تحرك فيه ساكنا. كان غمائل شمع كلسه الإغراء.. لا يمكنه أن يرفض نعمة سبقت له سقفا.. كرر طلبه ثالثا بنوع من الإصرار المودب وهو يقتل يده.

ألقى عليه السلطان نظرة غاضبة أحرقت كل جسور العتاب الرقيق التي نسجها بحواره الحكيم.. قام من كرسيه يبرع الأرض بخطواته المتتدة.. طال حبل الصمت.. تسارع وجيب قلب الضابط.. دقات الخداء السلطاني المتتابعة تطن في أذنيه كهلوسات حلم غامض.. انتظر كلمة الخلاص.. طال الصمت.. طالبت النظرات الغاضبة.. السلطان يمارس معه نفسيا فن إذابة الجليد.. إن الصمت يعذبه.. يسلمه لضمره المغيب.. لإيمانه المقيّد.. صراع بين دماثة الفاترة ودموهه الخبيسة.. انتفض خائفا مرعوبا من الاستهواء النفسي الذي مارسه السلطان عليه.

**ب** بمدينة إسطنبول وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني تلقى الضابط مراد الأمر السلطاني بكثير من الامتناع.. «لا للاستقالة.. لا لترك المهمة المقدسة، حراسة الفرقة العسكرية. قيادتها في هذا الظرف العصيب أمر لا يقبل النقاش». فرك يديه في عصبية.. أخذ جزءا ما قدمته من خدمات للخلافة؟ سنوات من الأعمال الشاقة العسكرية المتعبة.. تدريبات.. أسفار.. مغامرات.. كاد مرة أن يذهب ضحية مغامرته في حرب اليونان المرعبة.. هنأه رفاهه على النجاة بعد تخلصه من كمين جبلي مطبق في جوف ليلة سوداء متعبة.. دمعت عيناه.. وحف قلبه.. أخذ جزءا سنوات العناء ونكران الذات رغم ضالة الترتب وشظف العيش وتواصل التعب والكآ؟

إن حظه الآن يتسم له، وليلة قدره تنفتح في سعة مطاعمه، وكهولته تودع عمره السارِب، وللشيخوخة مطالب ملحة رغم سلامة بنيه وصحة جسده، فكيف يترك تركة أبيه وثرواته الغنية التي ورثها أخيرا؟ آه.. قلب الرائلين معا.. رسالة الخطب التبرّ المتبسّم تعده بالمدح، بالثراء بالراحة المستندة، بالتخلص من مشاغل الجيش المرهقة، ورسالة السلطان التي ترفض الاستقالة وتدعو للاستمرار والبقاء في عمله المقدس.

صمّ على مقابلة السلطان وإعادة الكرة من جديد.. إن الأمر جد في حياته الخاصة.. ومنعطف مهم في مسيرته العميرية. وفي الغد تلقى من الباب العالي عمر الإذن بزيارة قصر «يُلدِيز». كان السلطان عبد الحميد يراقب دخوله بنوع من التمعن والتفحص «الفراسي» الناقد.. يقرأ أعماقه ودواخله الملتبها وهو يقترب بخطواته من كرسي العرش.. تراءى له في وجهه الممرق المطعون صورة الجيش العثماني المهترئ وهو يعاني نحر الأمراض الزمّنة.. شدّ وحذب بين نداء الواجب ونقله المطامع والأهواء. أعاد شريط حياته السياسية وهو يتسلم مقاليد الخلافة المريضة.. سنوات قضائها في أجواء الممارات



تطرز جيد القلب الصديّ.. حلقةً للمروية تجتذبه بندواها وتحليقها..  
 تمنحه الذهب.. الودعد.. الخلاص، آه.. آه.. إنه بحاجة إلى حراز  
 سفر.. يضعه قبالة رسول الله.. يخلصه من المناهضة للضعيفة.  
 قاده خطواته المترعة إلى باحة مسجد السلطان أحمد  
 التاريخي.. الظلام غشاء كثيف يخفي هواجسه المتأينة.. ذبالة  
 النور تكشف أسرار المكان الغامضة.. استند إلى عموده الأثير  
 لديه.. امتدت نظراته إلى الخط الفاصل بين الظلام والنور..  
 غامت الرؤية.. استطالت الأحجام.. تدخلت الزوايا.. وانسرح  
 الحلم في وعيه الغائب.. وجد نفسه يقتفي أثر السلطان.. يتابع  
 كلامه.. يطل عليه من كوة وعيه المبصر.. كانت الساحة  
 فسحة مد البصر.. طبل تدوي.. أعلام تحقق.. حياض تصهل..  
 السلطان يستعرض الفيالق صبية رجل مهيب وخلفه يقف  
 أربعة رجال مهيبين.. كل فرق الجيش العثماني الظافر بتنظيمها  
 الصفوف.. تحدد في ذهول صوب الرجل «المهيب».. ابتسامته  
 النورانية.. نظراته الحانية.. تلويحاته المشجعة.. تبارك الجميع..  
 تمنحه الروح والرياح.. والسلطان يعرض عليه الفيالق صفا  
 صفاء.. والرجل «المهيب» يتسمم.. الفرق تواصل السير.. رفاقه  
 في مقدمتها.. أعلام النصر تطرزا «الشهادتان».. سيوفهم  
 تتقلقل في أعمادهم.. مدافعهم تتردد كل حين.. حناجرهم  
 تدوي بالتكبير.. خطواتهم تسير وفق إيقاع واحد.

أطل من كوة وعيه المبصر.. اللفة تعترض قلبه.. انتظر مرور  
 فرقته، طال به الانتظار للملء.. طابور الفرق يتناقص.. والرجل  
 «المهيب» يبارك.. والسلطان يستعرض.. وتلوح مؤخرة الجيش..  
 إنها فرقته.. يا إلهي!! أعلامها منكوسة.. مدافعها خرساء..  
 سيرفها صدمة.. خطواتها اضطراب وفوضى.. حناجرها تتشقق  
 عويلاً.. تتوسل بالرجل «المهيب»: «شفاعة يا رسول الله..  
 شفاعة!.. أحذه الدوار.. لفه حلال اللحظة.. تعلق بصره الزائع  
 بالوجه النبوي المهيب.. أحس كيانه يهتز.. ذراته وخلاياه تندمج  
 في هرمونية الموال الشجي «شفاعة يا رسول الله.. شفاعة..  
 شفاعة!.. أبصر السلطان يقترب من الوجه النبوي المهيب وخلفه  
 وجوه الخلفاء الراشدين المسفرة.. يسر له حديثاً هامساً.. يعزز  
 حديثه بالخركات الدالة.. الوجه المهيب يكسوه الغضب.. يتوجه  
 نحو.. يا إلهي يا إلهي! ماذا أسمع؟

الساحة الواسعة المكشوفة تنفض للنداء النبوي القاصم..  
 تردده حباتها.. أصداً تلتوي شعلاً مرعدة كاوية تردد في  
 وجع غاضب: «وَأَنَا أَغْفِيكَ.. وَأَنَا أَغْفِيكَ.. وَأَنَا أَغْفِيكَ..  
 وَأَنَا أَغْفِيكَ وَأَنَا.. وَأَنَا.. وَ...» [٤]

(٤) كتاب رآديب معري، وهذه الأفسوسة مستوحاة من قصة واقعة رواها  
 الشاعر التركي محمد عاكف.

كرر طلبه رابعاً بصوت راعش يشب فيه آخر ذبالة من توسلاته  
 المناهضة.. توقفت النظرات.. سكنت الخطرات.. أبصر السلطان  
 يملق في صورة حذارية للجيش العثماني الظافر.. بمسد لحيته  
 في عصية غاضبة، لم يتركه السلطان لجل الصمت كي يلف  
 عنقه مرة أخرى.. خاطبه برجع غاضب مشيحاً عنه بوجهه  
 التاريخي: «إني أغفيك، إني أغفيك».

خف طبقاً من قيده المضني، وامتنى متشياً قطار الإغراء  
 والإثراء.. يعبر به الرياض.. يكرع اللذات بعقم حواسه  
 الطامئة.. اللذات تعترض.. الفرحة تعرش في قلبه المكدود..  
 جنانته التي تطل على «البوسفور» يتفأ فيها أجمل اللحظات..  
 ينتهبها انتهاباً.. وتلاشي معها أيام «يلديز» بظلالها المستوحاة  
 الثقيلة.. وتلاشي شهور الحنادق المربعة، وسنوات البنادق  
 الدامية.. كوايس وكوايس تتوارى في لجة السيان الطامي.

ويستفيق من غمراته.. أحداث لا تصدق.. يا إلهي!!  
 الخرافة تتهاوى.. السلطان ينفي وراء الشمس.. وأنصاره  
 يعلقون على أعواد المشائت.. يا إلهي يا إلهي!! وتتفض  
 أعماقه لتقي رمادا داكماً خنق منافذ حسه الإيمان.. كلمات  
 السلطان الغاضبة تدري كصغير ربح تقنع أعوده اليابسة..  
 دويها يصم مسامعه.. أعاد شريط الوداع بقصر «يلديز» من  
 حديد.. القصر التاريخي الرابض يزأر جرحاً مدمي في وجهه  
 المصعوق.. قبابه.. أروقته.. شرفاته.. مشاعله المتناوسة.. كلها  
 تدوي منفضة بكلمات السلطان «إني أغفيك».. يا إلهي يا  
 إلهي!! تحاصره أسوار إسطنبول بعبادتها المبررة خرمها الغازي  
 والغزاة.. شاهد تاريخها مأسوراً على أبوابها العتيقة؛ غيروا  
 معالمها.. وجهها المألوف لديه يستهضئ كي يثأر.. ويقتنص  
 الغزاة بفيلقه الجسور.. «آه.. آه يا مدينتي خذلثك وخذلت بك  
 الإسلام.. آه.. آه.. جُل رفاقه في الجيش نُكِّل بهم.. وأشعل  
 الغازي من رفاقهم شموعاً تتر له درب المجد الكاذب.. ارتحلوا  
 شهداء كما تعود الطير إلى أعشاشها السماوية.

إحساسه بقطع «الحيانة» ينفز في وعيه كصل حاد جارح..  
 حاضره الحادع يللمم ويتقذف في وجهه كاخترقة البالية..  
 ماضيه يترج باكياً.. مثل له امرأة تُكلى مَنفوشة الشعر..  
 منسخة للملابس.. تعمي زوجاً الغيب في غيابة المجهول..  
 صرّخ الضابط في ذهول حالم: أنا زوجها الضائع المخدوع..  
 الغائب المخلوع.. أنا الزائف.. أنا النافز.. أنا.. أنا.. أنا..

عادته ذكرى نشيد «الخلاص».. كان مغرماً به.. يختفي بمولويه  
 الشجية حين تغلته شجون الحياة «شفاعة يا رسول الله شفاعة  
 شفاعة».. ورؤوس المريدن تترنج.. والدموع السخينة حبات عقد

# موت الكون

أورخان محمد علي \*

كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا كَافٍ ۝ وَيَسْئَلُ رَبُّكَ ذُو الْجَادِلِ وَالْإِكْرَامِ ۝



يتجنب النهاية الحتمية لكل مخلوق وهي الموت؛ لأن مثل هذا الكون المتوسع بعد أن يستنفد وقوده بتأثير عمليات الإشعاع الجارية في جميع النجوم، فإنه يموت لا محالة. وفي هذه الحالة يكون الكون مثل مقبرة هائلة متوسعة لا أثر للحياة فيه.

## الكون المفتوح

ولكن ما الذي يقرر انتصار قوة الجاذبية أو انتصار قوة التوسع الكوني؟ والجواب على هذا السؤال هو: إن كان التوسع الكوني بالمقدار الذي تستطيع بها المجرات من الإفلات من قوة الجاذبية فإن التوسع سيستمر دون توقف، وهذا هو نموذج «الكون المفتوح». أما إن كانت سرعة الكون أقل من سرعة الإفلات هذه فإن توسع الكون سيقف بعد مدة، ويبدأ الكون بالانكماش على نفسه وبالتراجع التقيضي. وهذا هو نموذج «الكون المغلق».

وما هي سرعة الإفلات؟ هي أصغر سرعة لازمة للإفلات من قوة جاذبية مكان ما. فمثلاً إن سرعة الإفلات بالنسبة لأرضنا هي ١١,٢٣ كم/ ثانية. أي إن أطلقت صاروخاً بهذه

في العدد الأول من مجلة «حراء» تناولنا آخر نظرية مقبولة لدى الأوساط العلمية حالياً حول مولد الكون، وهي نظرية «الانفجار الكبير» التي تستند إلى الحقيقة التي اكتشفها العلم، وهي حقيقة أن الكون يتوسع باستمرار وبسرعة كبيرة. فقال العلماء بأن مادة الكون كانت متركزة في السابق في نقطة واحدة حجمها صفر تقريباً، وأنها انفجرت ونشرت مادة الكون في كل اتجاه، وأن الكون بدأ يتوسع منذ ذلك التاريخ وحتى الآن. وأشارنا إلى الأهمية الفلسفية لهذه النظرية، فقلنا بأنها أنهت أسطورة أزلية المادة وأزلية الكون، وأثبتت أن الكون خلق في لحظة واحدة. وما دام هناك خلق فلا بد أن هناك خالقاً؛ لأن هذا الانفجار الهائل لم يكن كأي انفجار آخر؛ إذ كل انفجار يؤدي إلى الفوضى والتشتت والهدم. بينما أدى هذا الانفجار إلى تشكيل كون منظم غاية التنظيم. إذن فيد القدرة الألهامية والعلم المطلق الذي لا تحده حدود قد تجلّى في هذا الخلق بشكل واضح.

## تعددت الأسباب والموت واحد

ولكن هل سيتوسع الكون باستمرار؟ هل تنصهر قوة الجاذبية على قوة التوسع الكوني؟ أم يكون العكس هو الصحيح؟ هناك احتمالان في هذا الصدد:

الاحتمال الأول: وهو أن سرعة التوسع ستبطل تدريجياً بفعل قوة الجاذبية ثم تقف، وبعده سيبدأ الكون بالتراجع نحو الوراء، أي ستندفع المحرات وجميع الأجسام السماوية والفلكية الموجودة في الكون نحو المركز، وسيقتلص الكون وينكمش على نفسه بفعل قوة الجاذبية، حتى يرجع الكون كله ويتركز في نقطة واحدة صغيرة جداً قد تبلغ الصفر، أي يعود الكون إلى حالته الأولية. وهذا معناه طبعاً موت الكون وفناؤه قبل أن يصل إلى هذا الحد بوقت كبير.

الاحتمال الثاني: إن قوة الجاذبية لا تستطيع التغلب على قوة التوسع الكوني. أي إن الكون سيبقى في توسع دائم إلى الأبد.

وهل معنى هذا أن الموت لن يكون مصير مثل هذا الكون المتوسع على الدوام؟ لا يستطيع الكون حتى في الحالة الثانية أن



في النهار. وبعد ملايين السنين سيبلغ بريق الفضاء حدًا لا يُطاق وترتفع الحرارة إلى ملايين الدرجات. وقبل الوصول إلى هذا الحد يكون جميع أنواع الحياة قد انقرضت وفنت، ثم تبدأ النجوم بالذوبان في حساء كوني مؤلف من أجزاء الذرات ومن إشعاعات. حساء تبلغ درجة حرارته بلايين الدرجات، ثم يصغر الكون ويصغر... حتى تبلغ حجم نقطة صغيرة قريبة من الصفر ويتحول إلى «ثقب أسود». أي يصل إلى حالة الفردية (Singularity)، حيث تنقطع علاقته مع الزمان ومع المكان، ولا تعود القوانين الفيزيائية جارية فيه.

ولكن بعض العلماء الملحميين الذين رأوا إفلاس الحادهم أمام هذه النظرية اقترحوا نموذجًا ثالثًا للكون هو النموذج «البني» أو «المتذبذب»، وخلاصة هذا المقترح هو أن الكون يتسع منذ الأزل بانفجارات كبيرة، ثم ينكمش وينقلص على نفسه، ثم يتوسع بانفجار كبير آخر... وهكذا دواليك. إذن فهذا كون أزلي، لا بداية ولا نهاية له. وقد أعجب بهذا النموذج بعض العلماء الملحميين الذين لا يستسيغون فكرة «الخلق» وفكرة «القيامة»، أو نهاية الكون.

ولكن هذا النموذج لا يستطيع الوقوف أمام معطيات العلم وأمام الحقائق العلمية؛ لذا نرى أنه وضع على الرف وتم إهماله تمامًا في الأوساط العلمية؛ لأن العلم لا يعرف أي إمكانية لكي يتوسع الكون بعد تقلصه ووصله إلى حالة «الفردية»؛ لأن الثقب الأسود مثلاً -وهو مثال مصغر جدًا عن حالة الفردية التي يبلغها الكون في نهاية المطاف في التقلص- لا يستطيع التخلص من هذا الوضع، فكيف بالكون بأكمله؟ ثم هناك مشكلة أخرى أمام هذا النموذج وهي مشكلة الإنتروبي (Entropy)، وهي أنه في كل عملية تحول وتغير هناك قسم من الطاقة يتحول إلى شكل غير قابل للاستفادة منه. وعندما يصل الكون إلى حالة الفردية لا توجد هناك طاقة قابلة للاستفادة منها، أي يستحيل تحول الكون في هذه الحالة من وضع إلى وضع آخر؛ إذ لا توجد الطاقة التي يمكنها القيام بهذا التحويل.

إذن فسواء أكان هناك النموذج المفتوح أو النموذج المغلق للكون، فالمرء هو المصير الذي ينتظر الكون. ولا يعني هذا أن نهاية الكون ستكون بأحد هذين السيلين؛ لأن احتمالات نهاية الكون احتمالات عديدة جدًا يمكن أن نملأ كتابًا كاملاً.

هذا عن الكون، أما عن كوننا وعن الشمس والمجموعة الشمسية فإن عمرها ليس طويلاً إلى هذه الدرجة، فَعمرُ القوود في الشمس أقل بكثير من عمر الكون بأكمله. <sup>١٤</sup>

(هـ) كاتب وباحث تركي.

السرعة فإنه يستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية وينطلق إلى الفضاء. وإن كانت سرعة الصاروخ أقل من هذه السرعة (و لم تكن على مراحل متعددة) فهو يقطع مسافة معينة، ثم يقف، ثم يبدأ بالسقوط والرجوع إلى الأرض لتغلب قوة الجاذبية عليه. ولكل نجم أو كوكب أو قمر سرعة إفلات خاصة به.

ولكن هل سرعة توسع الكون تبلغ سرعة الإفلات؟ أي هل هي أكبر من قوة الجاذبية في الكون أم أقل؟ هذا الأمر مرتبط بالكثافة الحالية للكون. فإن كانت هذه الكثافة تبلغ ما نطلق عليه اسم «الكثافة الحرجة»، فمعنى هذا أن قوة الجاذبية الموجودة في الكون تكفي في المستقبل لإيقاف توسع الكون. أما إن كانت أقل فإن الكون سيبقى متوسعًا على الدوام.

فهل متوسط الكثافة في الكون يبلغ الكثافة الحرجة؟ قام العلماء بحساب الكثافة الحرجة فوجدوا أنها تساوي

$10^{-26} \text{ سم}^3$  وهذا يعني أنه لو كانت هناك مادة في الكون بمعدل ثلاث ذرات هيدروجين في المتر المكعب الواحد لبغث كثافة الكون الكثافة الحرجة. ثم قام العلماء بحساب كثافة الكون فوجدوا أنها تبلغ بضعة أجزاء من هذه الكثافة الحرجة.

هل معنى هذا أن الكون سيستمر بالتوسع؟ لأن كثافته لا تبلغ الكثافة الحرجة؟ لا يمكننا قول هذا بشكل أكيد؛ لأن ما حسبته العلماء من كميات المادة الموجودة في الكون كانت الكميات التي استطاعوا مشاهدتها بالأجهزة البصرية والراديوية. وهناك كميات هائلة من المادة لم تدخل في هذه الحسابات، منها على سبيل المثال «الثقوب السوداء» التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً، ثم هناك ما أطلقوا عليها اسم «الكتلة المفقودة» في الكون؛ فقد لاحظوا أن كمية المادة المشاهدة في المجرات لا تكفي أبداً لإبقاء هذه المجرات متماسكة، بل تحتاج إلى عشرة أضعاف هذه المادة؛ لكي تبقى في تماسك وتوازن. إذن فالكثافة المحسوبة للكون ليست هي كثافتها الحقيقية، وقد تبلغ كثافتها الحقيقية «الكثافة الحرجة».

### الكون المغلق

ماذا يحدث في نموذج «الكون المغلق»؟ تبدأ سرعة التوسع الكوني بالتناقص تدريجيًا حتى تبلغ الصفر أي يقف التوسع تمامًا، ثم يبدأ الكون بالاتجاه والتراجع نحو مركزه وبسرعات متزايدة بمرور الزمن. في البداية لا يظهر هناك تأثير واضح، فكل شيء سيدور اعتياديًا ومليارات السنين. ولكن ما إن يبلغ الكون 1/1 من حجمه الحالي حتى تبلغ درجة حرارة الفضاء -التي هي قريبة الآن من الصفر المطلق- درجة حرارة الأرض





مجلد عالمي ثقافتي فلسطين  
www.hiramagazine.com

مجلد

بفضل رسالتك التي كانت تبشر بكل مشكلة  
وتلبية كل حاجة وتحقيق كل أمنية وكل أمل،  
انشرحت الأنفوس وتفتحت الآمال في الأرواح،  
فبدأت نسايم الأمل تهب على القلوب التي كانت  
تنقلب على جهرات اليأس،  
وصدحت أنغام الأمل والسلوان في كل مكان.

